تاليف: الاستاذ الشهيد مرتضي مطهري

معرفة القرآن

الجزء الاول

جعفر صادق الخليلي

منشورات مؤسسة القرآن الكريم

معرفة القرآن 1

تأليف : الاستاذ الشهيد مرتضي مطهري

تعريب: جعفر صادق الخليل

منشورات : مؤسسة القرآن الكريم و قسم الاعلام الخارجي لمؤسسة البعثة

الطبعة الاولي سنة 1402 ه. ق

توزيع : مؤسسة البعثة – ايران – طهران شارع – مسية تليفون 821159

بسم الله الرحمن الرحيم

«أوصي الطلبة الجامعيين الأعزاء،

و الطبقة المثقفة المتنورة الملتزمة ألاّ

يدعوا الدسائس غير الاسلامية تنسيهم

مطالعة كتب هذا الأستاذ العزيز.»

الأمام الخميني

كثيراً ما كنت أجد عناء ، و أنا بعد شاب يافع، في مطالعة كتب التفسير، و تاريخ الإسلام و السير و فهمهما ، بسبب صعوبة اللغة، فكنت أجدني مضطراً الي أن أتركها جانباً علي مضض، بالرغم من شغفي و ولعي بالاستزاده من تلك المواضيع. و كان معي جمع من اصحابي لا يقلون عني ضيقا بضعف ادراكنا للغة تلك الكتب التي كانوا يصونها بالكتب الصفر.

بل لقد خاب ظننا حتي في خطبائنا الذين كان معظمهم يردد ما كان في بطون تلك الكتب الصفر نفسها ، دون أن يحاول التجديد فيها ، و تقريبها الي الأذهان ، و تبسيط لغتها، لتشويق الناس الي سماعها . كان الناس قد حفظووا عن الخطباء كل

ما في «مقتل الي مخنف» و يرددون معهم قصائد رثاء الحسين (ع) بالقريض و بالعامية، و يروون كل رواياتهم و قصصهم ، و يتباكون ، لا تغير و لا تبدل.

ثم سمعنا يوماً ان أحد مشاهير الخطباء الا يرانيين قد قدم الي النجف الأشرف و انه سوف يخطب في جامع الهندي بضع ليال. كان ذلك قبل ثلاثين و نيف من السنين. و كان اسم الخطيب . اذا لم تخني الذاكرة ، الشيخ الطبسي (رحمة الله حياً و ميتاً). و حضرت مجلسة مع آلاف غيري حتي اكتظ بهم المسجد علي سعته.

و ما انتهي من خطبته في الليلة الأولي، حتي شعرت أن هذا ما كان ينقصنا، و ما نفتقر اليه نحن الشباب الذين كنا يريد أن نبدأ الفهم من البداية و بشيء من التجديد. لقد فسرلنا الشيخ الطبسي بعض الآيات الكريمة من القرآن المجيد، و كان تفسيراً مزيجاً من التاريخ ، و الفلسفة و المنطق و الحديث، و الروايات المنقولة عن الأئمة – عليهم السلام - ، و حتي النكتة و النادرة (حدث في ليلة حارة ان فك الشيخ الطبسي حزامه ، و رواح يمسح به العرق عن رأسه و وجهه، ثم اعتذر عن ذلك بقوله ان حزامه أشبه بعصا موسي، فهو حزام يوماً، و عمامة يوماً آخر، و منديل لتجفيف العرق، و سفرة يتناول عليها الطعام احياناً اخري).

و اذ عاد الرجل بعد تلك الليالي الي بلده ، عدنا نحن نجتر ذكرياتنا منه، و قد احسسنا ان الفراغ الذي تركه اخطر بكثير مما كنا نظن، فقد افتقدنا اسلوبه الجديد، و بساطة عرضه، و سعة اطلاعه و لم ينفع معنا ما أخذ يردنا بعد ذلك من مصر و لبنان من الكتب الجديدة لكتاب افاضل. صحيح انها كانت كتباً عظئمةً رائعةً، الا انها كانت قد كتب للتاريخ، و للنخبة من الناس و ليس العاديين من الطبقات المتوسطة.

لقد كانت السنوات التي اعقبت الحرب العاليمة الثانية سنوات حرب اعنف و أشد ، حرب العقائد و الافكار و الا يديولو جيات التي و فدت علي الشرق مع ماورد من الغرب من بضائع و عادات . الا انها كانا حرباً غير متكافئة، و قودها البقة الكادحه، و الشباب المثقف الأعزل، الذي لو لا تأصل فطرته الدينية و تشبثه بمبادئه الأصلية ، لجرفه التيار العارم. و مع ذلك فالخسائر لم تكن قليلة ، فقد اخذ التيار الكثير، و لقد

كان لالمكان تقليل الخسائر الي ادني حد، لو ان المدافعين كانوا قد تسلحوا بمثل ما تسلح به رجال الدين الافاضل في ايران، فهم الي جانب تضلعهم في العلوم الدينية، درسوا العلوم الحديثة، و اخذوا من لغة العصر جانياً مهماً اعانهم علي إيصال الأسس التي بني عليها الاسلام الي قلوب الكثرة من عموم أبناء الشعب. بلغة سهلة ، و منطق سليمة و قرع الحجة بالحجة ، و دحض المفتريات بالألة الدامغة ، مما حفظ للامة الاسلامية في ايران وحدتها و توحدها ، و تمسكها بعلمائها الاعلام.

و اليوم، و انا نزيل طهران ، أجدني محاطاً بحشدٍ مِن خيرة العلماء المتنورين المجاهدين ، و بفيض من الكتب القيمة التي تعين عامة الناس علي التمسك بالاسلام ديناً، و خلفاً، و سلوكاً.

و لقد اتاح لي حسن الحظ ان أقوم بجولة ماتعة في مجموعة مؤلفات الاستاذ الشهيد مرتضي مطهري، اطاعة لوصية امام الأمة، و اذابي استرجع ذكري الايام الخوالي، و اذا بالكلمة تند من فمي «وجدته».

نعم وجدته ، فهذا انسان عرف نفسه، و عرف بني جلدته ، و عرف ما ينبغي لهم، فقدمه في تدرج سليم، و في لغة سائغة، خطباً، و محاضرات ، و كتباً، بخبرة الطيب النطاسي العارف بالداء، و العارف بالدواء ، فيصفه بنيّة خالصة تقرباً الي الله تعالي. فما كان مني الا ان عقدت العزم . بعون الله علي ان أقدم هذه الكتب النفسية الي ابناء اللغة العربية، تلك اللغة الشريفة التي ما فتيء شهيدنا الاستاذ مطهري ينادي في كتبه بضرروة تعلمها و تعميمها حتي في المدارس الابتدائية.

و اني اذ اضع بين يدي القاريء العربي هذا الكتاب الأول من سلسلة «القرآن» ليحدوني الامل في ان يمدالله تعالي في توفيقي، فاقدم ما بقي من كتبه و دراساته و بحوثه . فأكون قد حققت بذلك ما كان ينبغي ان يتحقق من قبل لسد الفراغ الذي مازلنا نحسه في نفوس شبيبتنا و طلابنا حتي اليوم.

و لا يسعني هنا الا أن اسجل تقديري و شكري لمؤسسة «بنياد بعثت» التي كانت سبباً في ما حباني به الله من توفيق ، و الله لا يضيع اجر من أحسن عملا.

جعفر صادق الخيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة القرآن

إن معرفة القرآن لكل فرد عالم باعتباره عالماً، و لكل فرد مؤمن باعتباره مؤمناً، أمر ضروري و واجب. الا إن ضرورة معرفة القرآن لعلماء النفس و لعلماء الاجتماع ، تتأتي من حقيقة أن هذا الكتاب كان ذا تأثير علي المجتمعات الاسلامية، بل و في مصير المجتمع البشري برمته.

إن نظرة إلي التاريخ ، تؤيد القول بأنه لم ين لأي كتاب ما كان للقرآن من الأثر في المجتمعات الأنسانية و الحياة البشرية[1]. و لهذا يدخل القرآن عنوة الي ميدان علم الاجتماع. و يصبح جزءاً من مواضيع بحث هذا العلم. و هذا يعني أنّ إجراء أية دارسة أو تحقيق حول تاريخ العالم خلال الأربعة عشر قرناً الماضيات ، و معرفة المجتمعات الأسلامية علي وجه الخصوص ، لا يمكن أن يتيسر قبل أن تعرف القرآن.

أما ضرورة معرفة القرآن للمسلم المؤمن ، فناشئة من كونه أصل إيمان المسلم، و منبع دينه و أساس فكره، فما يمنح حياة المسلم حرارتها و معناها و حرمتها و روحها إنما هو القرآن.

1

كان بالامكان تقليل الخسائر الي ادني حد لوان المدافعين كانوا قد تسلحوا بمثل ما تسلح به رجال الدين الافاضل في ايران، فهم الي جانب تضلعهم في العلوم الدينية، درسوا العلوم الحديثة، و اخذوا من لغة العصر جانباً مهماً اعانهم علي إيصال الأسس التي بني عليها الاسلام الي قلوب الكثرة الكاثرة من عموم أبناء الشعب، بلغة سهلة، و منطق سليم ، و قرع الحجة بالحجة و دحض المفتريات بالأدلة الدامغة، مما حفظ للامة الاسلامية في ايران وحدتها و توحدها ، و تمسكها بعلمائها الاعلام.

و اليوم، و انا نزيل طهران، أجدني محاطاً بحشيدٍ من خيرة العلماء المتنورين المجاهدين ، و بفيض من الكتب القيمة التي تعين عامة الناس علي التمسك بالاسلام ديناً، و خلقاً و سلوكاً.

و لقد اتاح لي حسن الحظ ان أقوم بجولة ماتعة في مجموعة مؤلفات الاستاذ الشهيد مرتضي مطهري، اطاعة لوصية امام الأمة و اذابي استرجع ذكري الايام الخوالي و اذا بالكلمة تند من فمي «وجدته».

نعم وجدته ، فهذا انسان عرف نفسه ، و عرف بني جلدته ، و عرف ما ينبغي لهم ، فقدمه في تدرج سليم ، و في لغة سائغة، خطباً، و محاضرات ، و كتبا، بخبرة الطيب النطاسي العارف بالداء و العارف بالدواء ، فيصفه بنيّة خالصة تقرباً الي الله تعالي . فما كان مني الا ان عقدت العزم، بعون الله علي ان أقدم هذه الكتب النفسية الي ابناء اللغة العربية، تلك اللغة الشريفة التي ما فتيء شهيدنا الاستاذ مطهري ينادي في كتبه بضرورة تعلمها و تعميمها حتي في المدارس الابتدائية.

و اني اذ اضع اليوم بين يدي القاريء العربي هذا الكتاب الأول من سلسلة «القرآن» ليحدوني الامل في ان يمد الله تعالي في توفيقي ، فاقدم ما بقي من كتبه و دراساته و بحوثه، فأكون قد حققت بذلك ما كان ينبغي ان يتحقق من قبل لسد الفراغ الذي مازلنا نحسه في نفوس شبيبتنا و طلابنا حتي اليوم.

و لا يسنعي هنا الا أن اسجل تقديري و شكري لمؤسسة «بنياد بعثت» التي كانت سبباً في ما حباني به الله من توفيق ، و الله لا يضيع اجر من أحس عملا.

جعفر صادق الخليلي

و القرآن ليس كباقي الكتب الدينية التي تطرح سلسلة من المسائل الغامضة فيما يختص بالله و الخليفة و التكوين ، و من ثم يتقدم بسلسلة من المواعظ الأخلافية الساذجة فحسب، بحيث أن المؤمنين لا يرون مندوحة عن اللجوء الي مصادر أخري يستقون منها القوانين و الأفكار.

إن القرآن يبين أصول المعتقدات و الأفكار و الآراء اللازمة للأنسان كفرد «مؤمن» و ذي عقيدة، و كذلك يضيع اصول التربية و الاخلاق و النظام الاجتماعي و الأسر، و لم يترك علي عاتق السنة او الاجتهاد سوي ما يتطلبه التوضيح، و التفسير، و التشريح، و الاجتهاد احياناً، و تطبيق الاصول علي الفروع . لذلك فكل رجوع الي أي مصدر آخر، يقتضي أولاً الرجوع إلي القرآن ومعرفته . إذ أن القرآن هو المقياس و المعيار لكل المنابع الأخري. فالحديث و السنة علينا نقيسهما بمعيار القرآن لكي نري إن كانا يطابقان القرآن فنتقبلهما و إلافلا.

إن أهم مصادرنا المقدسة – بعد القرآن – في الحديث هي «الكتب الأربعة». و هي : «الكافي» و «من لا يحصره الفقيه» و «التهذيب» و «الاستبصار». و في الخطب «نهج البلاغة»، و في الأدعية «الصحيفة السجادية». إلا إنها جميعاً فروع من القرآن ، و ليست لها قطعية بتّ القرآن. أي إن اعتبارنا لحديث الكافي. يعتمد علي مقدار تطابقه مع القآن و تعليماته . و علي ألا يكون بينهما اختلاف. كان الرسول الاعظم (ص) و الأئمة الأظهار يقولون: اعرضوا أقوالنا علي القرآن ، فمالم ينطبق عليه منها ، فاعلموا إنه موضوع و مختلق و منسوب إلينا. فنحن لا ننقول ما يخالف القرآن.

انواع معرفة القرآن

اما و قد شخصنا ضرورة معرفة القرآن، فقد بقي أن نعرف طرق معرفة هذا الكتاب. إن لمعرفة كل كتاب و دراسته ، عموماً طرقاً ثلاثة:

الأول : المعرفة السندية و او الانتسابية

في هذه المرحلة ، نسعي لمعرفة مدي انتساب الكتاب إلي مؤلفه. فلنتفرض إننا نريد معرفة ديوان حافظ [الشيرزاي] أو خيّام . إن الخطوة الأولي هي أن نري إن كان ما يطلق عليه اسم ديوان حافظ كله من نظم حافظ، أو إن بعضنا منه فقط من نظمه، و إن بعضه الآخر مضاف إليه . كذلك الأمر بشأن خيام و غيره.

و هنا تبرز قضية تعدد النسخ ، و علي الأخص أقدمها تاريخاً و اكثرها اعتباراً، فنلاحظ إن أياً من هذه الكتب لا يستغني عن المعرفة و التمحيص. فديوان حافظ الذي طبعه المرحوم القزويني، إستناداً إلي اكثر النسخ اعتباراً، يختلف اختلافاً بينا عن دواوين حافظ المعروفة التي طبعت في ايران أو في بمبي ، والتي يحتفظ بها الناس في دورهم . فالدواوين التي طبعت قبل 30 أو 40 سنة تكاد تبلغ ضعفي حجم الدواوين التي يعتمدها الباحثون اليوم. علي الرغم من إننا نجد بين الأشعار التي يعتبرها الباحثون منحوله أبياتاً لا تقل جودة عن شعره الموثوق.

و عندما ننظر إلي الرباعيات المنسوبة إلي خيام نجد ثمة 200 رباعية تكاد تكون متقاربة المستوي و لا يتعدي ما فيها من اختلاف تلك الحدود المتعارف عليها عند الشعراء. و لكننا كلما تقدمنا تارخياً مقتربين من عصر الخيام نجد أن مالا يشك في نسبته الي الخيام من ذلك العدد لا يتجاوز عشرين رباعية. و الباقي إما أن يكون مشكوكا في انتسابه إليه، أو أنه لشعراء آخرين حتماً.

و عليه، فان المرحلة الأولي في معرفة كتاب ما هي أن ننظر إذا كان ما بين آيدينا يمكن إسناده إلي مؤلفه أم لا . و إلي أي مدي يصح ذلك. هل إن مستنداتنا تؤيد كل ما بين أيدينا، أو أنها تصح علي بعض دون بعض؟ و في هذه الحالة ما هي النسبة المئوية لصحة المنسوب إلي المؤلف؟ ثم ما دليلنا علي صحة الانتساب، أو علي الشك في الانتساب؟.

ان القرآن غني هذا النوع من المعرفة ، و هو ، لهذا السبب، كتاب فريد بابه

في العالم القديم، فما من كتاب بين الكتب القديمة يمكن ان تمر عليه قرون طويلة و يبقي مع ذلك لا تناله شبهة او اعتراضات من قبيل أن تكون السورة الفلانية مشوكاًفيه، أو أن الآية الفلانية وجودة في النسخة الفلانية و غير موجودة في غيرها ، ليست مطروحة اساًا. إن القرآن متقدم علي النسخ و علم المعرفة بالنسخ ،فليس ثمة أدني شك في إن الذي أتي بجميع تلك الآيات هو محمد بن عبدالله (ص) علي اعتبار أنها معجزة ، و أنها كلام الله. و إن احداً لا يستطيع أن يدعي بوجود نسخة مختلفة من القرآن ، و لا الزعم باحتمال وجودها. و لم يظهر من المستشرقين أحد يحاول تناول القرآن من هذه الناحية، ليقول إن علينا أن نبحث عن نسخ القرآن القديمة جداً لكي نري ما قيها و ما ليس فيها و لئن كانت كتب مثل التوارة و الأنجيل و الأفستا، أو مثل «شاهنامة» فردوسي و«گلستان» سعدي و غيرها تستلزم هذه الطريقة، فأن القرآن غني عن كل ذلك.

في هذا الموضوع سبق أن قلنا القرآن متقدم علي النسخ و العلم بالنسخ ، فهو فضلا عن كونه كتاباً مقدساً سماوياً و ينظر إليه أتباعه من هذا المنظور، فانه أقوي دليل و برهان علي صدق دعوي الرسول و أكبر معجزة من معاجزه.

ثم إن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كالتوراة لتظهر عندئذ مشكلة التساؤل عن النسخة الأصلية ، بل تتابع نزول القرآن خلال ثلاث و عشرين سنة. و منذ اليوم الأول يستوعبون آياته و يحفظونها في قلوبهم . حيث كان المجتمع الاسلامي يومئذ مجتمعاً بسيطاً و ليس عنده كتاب آخر يقرؤه و يحفظه الي جانب القرآن ، فكان يمتاز بخلو الذهن وقوة الحافظة. كما إن تفشي الأمية بينهم حملهم علي أن يتناولوا معلوماتهم و معرفهم من بين ما يرون و يسمعون.

لذلك فقد ارتسم القرآن علي قلوبهم – و هو الذي نزل منسجماً مع ما لديهم من عاطفة و إحساس – ارتسام النقش علي الحجر. و لما كان القرآن عندهم كلام الله ، لا كلام بشر، فقد راحوا ينظرون اليه بتقديس، و لا يسمحون بأن يتبدل فيه حرف

واحد. و لا أن يتغير مكان كلمة واحدة تقديماً و تأخيراً، بل كانوا لا يفتأون يتلونه و يرتلونه تقرباً الي الله تعالي. و لابد ان نذكر ان النبي (ص) قد انتخب منذ الايام الأول عدداً من الكتبة عرفوا باسم «كتاب الوحي». هذه ميزة أخري تضاف إلي مميزات القرآن لم تكن من نصيب أي كتاب آخر. إذ إن تدوين كلام الله منذ البداية يعتبر من جملة الأسباب الرئيسة في حفظه و صيانته من الحريف.

***

إن من المظاهر الأخري التي كانت سبباً في حسن استقبال الناس للقرآن ، هو جانبه الأدبي و الفني الرفيع ... جانب فصاحته و بلاغته . كانت لقوته الأبية جاذبية تشد الناس إليه شداً و تحملهم علي سرعة استيعابه، بخلاف ما هو عليه الأمر بشأن كتب الأدب الأخري، مثل ديوان حافظ و أشعار مولوي و غيرهما. فقد كان المولعون بها لا يتحرجون من التلاعب بما فيها لكي يزيدوها اكتمالاً علي ما يدعون . إلا أن أحداً لم يجز لنفسه أن يمد يداً في القرآن ، و قد نزل قوله تعالي'

«وَ لوْ تَقَوّلَ عَلَيْنا آلأقَاوِيلِ لأخَذْنَا مِنْهُ بِاليمَينِ ثُمَّ آلوَتِيْنَ»

و آيات غيرها تبين وخامة التقول علي الله يبحانه و و علي ذلك ، و قيل أن يطرأ اي تحريف علي هذا الكتاب السماوي. تواترت آيه حتي بلغت مرحلة لم يعد بالإمكان معها حدوث أي تصحيف أو تحريف أو انكار. و لهذا فلسنا بحاجة إلي أن نبحث هذا الجانب من جوانب القرآن ، كما لا يحتاج ذلك أي خبير متضلع في القرآن . بيد آننا لابد أن نتطرق إلي نقطة بهذا الخصوص، و هي إنه علي أثر سرعة انتشار الأسلام و دخول الناس فيه أفواجاً، و بسبب ترامي اطراف بلاد المسلمين و بعدها عن المدينة المنورة، مركز الصحابة و حفظة القرآن. فقد ظهر احتمال وجود خطر يهدد القرآن، و علي الأخص في المناطق النائية، حيث يمكن أن يقوم بعضهم من باب التعمد أو السهو، بإضافة أو حذف أو تغيير في نسخ القرآن هناك . غير إن ذكاء المسلمين و حسن تقديرهم للامور، حال دون وقوع هذا الأحتمال ، إذا إنهم تنبهوا إلي ذلك مبكراً في النصف الاول من القرن الأول الهجري، و أدركوا أن عليهم أن يدرأوا

خطر أي تغيير معتمد ، أو غير معتمد في القرآن ، فاستفادوا من حفظته و من الصحابة. و أرسلوا نسخا مصدقة من المدينة إلي تخوم الأسلام البعيدة، و بذلك و قفوا بوجه أي تخريب من هذا القبيل، و علي الأخص بوجه اليهود الذين كانوا أساتذة فن التزوير و التحريف المشهورين.

الثاني: المعرفة التحليلية

في هذه المرحلة يكون تحليل الكتاب هو موضع الدراسة ما يشتمل عليه الكتاب من مطالب، و ما يقصد إليه من أهداف، ما هي نظرته إلي الكون؟ و إلي الأنسان ؟ و إلي المجتمع؟ ما هي طريقة عرضه لتلك المطالب و أسلوب معالجته إياها؟

أينطوي علي منظور فلسفي، و كما نقول اليوم، أفيه منظور علمي؟ أينظر إلي الأمور بعين العارف، أم أن له أسلوبه الخاص؟ و ثمه سؤال آخر: أيحمل هذا الكتاب رسالة ما موجهة للبشرية؟ فاذا كان الجواب بالإيجاب ، فما هي تلك الرسالة؟

في الواقع أن المجموعة الأولي من الاسئلة تتعلق بوجهة نظر الكتاب في الكون و الأنسان و الحياة و الموت ، أو بعبارة أشمل تتعلق بوجهة نظره الكونيه، و هو ما يصطلح عليه فلا سفتنا اليوم بحكنه النظرية . أما المجموعة الأخري من الأسئلة فتتعلق بما إذا كان الكتاب يعرض خطة لمستقبل الأنسان ، و علي أي طراز يريد أن يبني الأنسان و المجتمع؟ و هذا ما نطلق عليه اسم : رسالة الكتاب.

علي كل حال، هذا الضرب من المعرفة يخص المحتوي، و يمكن إخضاع أي كتاب إلي هذه المعرفة سواء آكان كتاب «الشفاء» لابن سينا، او ديوان «گلستان» لسعدي، و قد نجد كتاباً ليس فيه (منظور) و لا (رسالة) او قد يكون له (منظور) بغير رسالة ، او قد يضمهما كليهما .

اما من حيث معرفة القرآن معرفة تحليلية ، فينبغي علينا أن نعرف المسائل التي يتناولها و كيفية تناوله إياها،و كيف تكون استدلالاته و مجادلاته في مختلف

المواضيع .

و إذا كان القرآن حارس الأيمان و محافظاً له. و رسالته رسالة الايمان ، فهل ينظر إلي العقل بعين الرقيب المافس محاولاً صد هجماته ، أو انه بالعكس ينظر دائماً إلي العقل بعين الحامي و المدافع محاولاً الاستعانة به؟ هذه الأسئلة ، و مئات غيرها مما يطرح خلال العرفة التحليلية ، هي التي تقودنا الي إدراك ماهية القرآن.

الثالث: معرفة الاصل

في هذه المرحلة ، و بعد الاطمئنان الي نسبة الكتاب الي مؤلفه ، و بعد التحليل التام لمحتواه ، علينا أن بنداأ البحث لنعرف إن كانت محتويات الكتاب و مطالبيه من إبداعات فكر المؤلف نفسه، أم إنها مدينة إلي افكار الآخرين. ففيما يتعلق بديوان حافظ، مثلاً ، و بعد الانتهاء من مرحلتي المعرفة المستندية و المعرفة التحليلية، علينا ان نتساءل إن كانت هذه الافكار و الآراء التي أفرغها حافظ في قوالب الكلمات و الجمل و الابيات ، و عبر عنها بلغته الخاصة، قد ابتدعها بنفسه ، أم إن ابوتّه لها انما تقتصر علي الألفاظ و الكلمات و جمالها الفني فحسب، و إن الأفكار و الآراء تخص غيره من الناس؟ و بعبارة اخري إننا بعد ان نتأكد من اصالة حافظ الفنية، ينبغي ان نتأكد من اصالته الفكرية ايضاً.

هذا النوع من المعرفة بخصوص حافظ أو أي مؤلف آخر هو معرفة أصول أفكار المؤلف و آرائه . و هذه المعرفة فرع يفترع من المعرفة التحليلية. أي إننا يجب أفكار المؤلف و آرائه . و هذه المعرفة فرع يتفرع من المعرفة التحليلية . أي إننا يجب أولا أن نعرف محتوي أفكار المؤلف بدقة، و من ثم نتوجه إلي معرفة أصوله ، و بغير هذه الطريقة يكون عملنا مشابها لما يقوم به بعض المؤلفين في كتابة تاريخ العلوم بدون أن يكون لهم أي علم بها. أو مثل بعض المؤلفين الذين يكتبون في الفلسفة، كأن يكتبوا عن ابن سينا و أرسطو و يحاولون إيجاد ما يتشابهان فيه و ما يختلفان ، و لكنهم مع الأسف لا يعرفون ابن سينا و لا أرسطو.

إنهم ما إن يجدوا عندهما بعض الالفاظ المتابهة ، حتي يأخذوا بإصدار

الأحكام، مع إن عليهم عند المقارنة أن يتعمقوا في فهم الفكرة، و إن التعمق في إدراك عمق افكار اشخاص مثل ابن سينا و أرسطو ليستغرق عمراً بأكمله، و ليس ما يقال غير ذلك سوي تخمين و خبط عشواء.

عند بحث القرآن و معرفته، و بعد أن نكون قد أنجرنا مطالعتنا التحليلية، يأتي دور المقارنة و المعرفة التاريخية. و هذا يعني إن علينا أن نقارن القرآن بكل محتوياته مع كتب أخري كانت موجودة في عصره ، و علي الاخض الكتب الدينية. و لأجراء هذه المقارنة لابد من توفر جميع الشروط. مثل مدي ارتباط شبه الجزيرة العربية بالمناطق الأخري، و نسبة الذين كانوا يعرفون القراءة و الكتابة يومئذ في مكة... الخ . ثم نقوم بالتقويم و التقدري.

تري هل كل ما جود في القرآن موجود ايضا في كتب اخري؟ فاذا وجد ، فما هي نسبة وجوده؟ و هل إن المطالب الموجودة في الكتب الأخري تتخذ شكل الاقتباس أم إنها مستقلة ، أم إنها لا تعدو أن تكون مجرد تصحيحات و توضيحات لما قد يكون فيها من تحريف؟

اصالات القرآن الثلاث

عندما نقرأ عن القرآن تتضح لنا «اصالات القرآن الثلاث»:

اولاها : اصالة الانتساب ، أي إننا بغير أن يخامرنا أني شك، أو أن نحتاج إي دراسة النسخ القديمة، نكون واثقين بأن ما يثرأ اليوم باسم القرآن المجيد، هو الكتاب عينه الذي نزل علي محمد بن عبدالله (ص).

و الاصالة الثانية: هي اصالة المحتوي ، أي إن المعارف القرآنيه ليست ملتقطة و لا مقتبسة ، بل هي مبتكرة . و التحقيق في هذا الجانب تتكفل به المعرفة التحليلية .

و الإصالة الثالثة : هي الإصالة الآلهية، أي إن هذه المعارف قد فاضت مما وراء أفق الرسول (ص) الذهني و الفكري، و إنه لم يكن سوي ناقل هذا الوحي و مبلغ هذه الرسالة ، و هذا ما تتكفل به معرفة أصل القرآن.

.....

ان معرفة الأصل ، أو بعبارة أخري معرفة إصالة المعارف القرآنية، مبنية علي النوع الثاني من المعرفة. و لذلك فإننا سنبدأ من المعرفة التحليلية ، أي إننا سنبد أببحث محتويات القرآن ، و ماهية المسائل المطروحه فيه، و المسائل التي تنال حظا أوفر من التوكيد ، و طريقة عرض تلك المسائلو فاذا استطعنا في المعرفة التحليلية أن نفي تلك المسائل و المطالب حقها. و أن نزداد معرفة بالمعارف القرآنية. نكون كما قلنا ، وصلنا الي الصالة هي اهم اصالات القرآن ، وهي (الاصالة الالهية) اي كون القرآن معجزة.

شروط معرفة القرآن

يتطلب التعرف علي القرآن بعض المقدمات التي سوف نوردها فيما يلي: إن من أهم الشورط اللازمة للتعرف علي القرآن هو معرفة اللغة العربية، فبمثلما يتطلب التعرف علي حافظ و سعدي معرفة اللغة الفارسية، كذلك لا يمكن التعرف علي القرآن المكتوب باللغة إلا بمعرفة العربية. و الشرط الآخر هو معرفة تاريخ الأسلام ، ذلك لأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة مثل التوارة و الانجيل . و إنما استغرق نزولة ثلاثاً و عشرين سنة من حياة الرسول (ص)، من بعثته حتي وفاته، في غضون سنوات ثائرة من تاريخ الأسلام. و لذلك فإن لآيات القرآن (شأن نزول). و لا يعني هذا إن معني الآية محدد بحدودها ، بل علي العكس من ذلك ، إذ إن معرفة شأن النزول تساعد كثيرا علي توضيح مضمون الآية و تمهد السبيل لفهمها . و الشرط الثالث هو معرفة اقوال الرسول الاكرم (ص) إذا إنه ، حسبما ورد في القرآ‹ ، المفسر الاول لهذا الكتاب:

«وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزِّلَ إِلَيْهِم...»

«هُوَ ٱلَّذي بَعَثَ في ٱلأُمِّيِّنَ رَسُوْلاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمآيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمهُمُ ٱلْكِتَابَ و ٱلْحِكْمَةَ.»فالرسول، بحث القرآن، هو المبين لهذا الكتاب و المفسر له، و كل ما وصلنا

منه يعيننا علي تفسير القرآن. أما نحن الشيعة المعتقدين بالأئمة الأطهار. و المؤمنين بأن كا كان عند الرسول (ص) من الله قد نقله إلي أوصيائه الأكرمين، نري الروايات الموثوقة التي وصلتنا منهم لها ما للروايات الموثوقة التي وصلتنا من الرسول (ص) نفسه. و لذلك فان الموثوق به مما يروي عن الأئمة يعيينا علي التعرف علي القرآن كذلك.

ثمة نقطة مهمة تجب ملاحظتها عند دراستة القرآن و البحث فيه، و هي إن مجموع آيات القرآن تؤلف بنيانا متماسك الاجزاء ، أي إننالو أخذنا آية واحدة و قلنا إننا نريد أن نفهم هذه الآية وحدها، فلن نكون قد اتخذنا سبيلا سوياً. لاشك إن فهمنا لتلك الأية قد يكون صحيحا ، و لكنه عمل غير سليم، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً. و هذا ما أيده الأئمة الأطهار حسبما ورد علي لسان بعض كبار المفسرين . إن للقرآن طريقة خاصة في بيان المسائل، ففي كثير من الأحيان يكون للآية إذا أخذت منفردة مفهومها يختلف كل الاختلاف عن مفهومها إذا ما وضعت إلي جنب الآيات المشابهة لها في المضمون.

كمثال علي طريقة القرآن الخاصة ، يمكن أن نشير إلي آياته المحكمات و المتشابهات و التي يحمل العامة عنها تصورا معيناً. ويظن بعض ان المحكمات هي تلك الآيات التي ترد فيها المسائل بصورة صريحة و بسيطة، و المتشابهات ، علي العكس، هي التي ترد فيها المواضيع يبصورة ألغاز و معميات و رموز. و علي هذا يحق للناس أن يقتصروا علي التدبر في محكمات آياته البصريحة، ظانين إن متشابهاته عصية علي الفهم و التدبر.

و هنا يبرز هذا السؤال: ما هي فلسفة وجود الآيات المتشابهات؟ لماذا يعرض القرآن ايات غيز قابلة للفهم؟ ان الجواب إجمالا هو إنه لا المحكمات صريحة في معناها، و لا المتشابهات غامضة المعني. إن الغامضة من التعابير، هي ما يكون معناها مبهماً و محملا و في كلمات لا تفيد المعني بصوره مستقيمة. فمثلا عندما كافأ السلطان محمود [الغزنوي] فردوسي الشاعر مكافأة ضئيله علي الرغم مما عاناه من تعب، فانه

رفض صلة السلطان ، و إخذ يهجوه في شعره، متهما إياه بالبخل و الإمساك ، و كان بعض هجوه صريحاً، و بعضه الآخر مبهما.

من ذلك قوله ما معناه : «لو كانت ام السلطان ملكة لبلغ ذهبي و فضتي ركبتي».

و يقول في مكان آخر :«ان كف السلطان محمود ، فاح البلاد ، عادت تسعة في تسعة و ثلاثة في أربعة». فما معني هذا؟

هنا يستخدم فردوسي تعبيراً غامضاً أشبه باللغُزو هو يقصد أن يقول : 9 *9= 81 و 3 *4=12 و المجموع = 93 و هذا يعني إن كف السلطان محمود تشبه الرقم 93، إي إن كفه مضمومة ضماً شديداً باستثناء الابهام الذي يكون مع السبابة الرقم 9 و يؤلف مع الاصابع الثلاثة الاخري الرقم 92. و بهذا يشير فردوسي الي خسة السلطان محمود.

و الآن ، هل في القرآن آيات ذوات الغاز؟ إن هذا يتنافي مع نصوص القرآن التي تقول إن القرآن كتاب ينير الطريق، و يفهمه كل الناس، و آياته نور و هدايةو إن السرفي ذلك هو أن بعض المسائل المطروحة في القرآن تدور حول ماوراء الطبيعة والأمور الغيبية. و هي أمور غير قابلة للافصاح عنها بالالفاظ.

و كما يقول الشيخ الشبستري:

«لا يمكن ضم المعاني في الحرف ، بمثلنا لا يمكن ضم البحر اللامتناهي في اناء».

و لكن لما كانت لغأ القرآن هي لغة الناس ذاتها . فكان لابد لتلك المواضيع الدقيقة المعنوية أن تردتدي تعابير مما يستعملها الناس للمواضيع المادية. و لغرض الحيلولة دون وضوع سوء فهم . فقد طرحت بعض الآيات بحيث لا تكون مندوحة عن الرجوع الي آيات أخري للاستعانة بها في تفسيرها. و ما من سبيل غير هذا في ذلك. كقثلا، إن القرآن أراد أن يتطرق إلي حقيقة «رؤية الله قلبياً». أي إن الأنسان قادر علي أن يري الله بقلبه.

هذه الحقيقة وردت هكذا:

.....

«وُجُوهٌ يُوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ».

فالقرآن يستخدم هنا لفظة النظر لعدم وجود كلمه اخري تناسب المقصود. و لكنه لكي يحول دون حدوث أي سوء فهم يقول في مكان آخر:

«لاَ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ».

فلا شك في إن القاريء سوف ينتبه. علي الرغم من التشابه اللفظي . أن ليس بين هذين الأمرين علاقة. و انهما منفصلان كل الانفصال. و لئلا تختلط تلك المعاني الرفيعة الشامخة بالمعاني المادية. يطلب القرآن منا أن نرجع بالمتشابهات علي المحكمات:

«هُوَ ٱلَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هَنَّ أُمَّ الكِتَابِ».

و المحكمات هن اللواتي لا يمكن اخراجهن عن معانيهن ، و لا أن نستنتج منهن معاني اخري. تلك هي الآيات الأم. فكما إن الطفل يرجع إلي أمه، و هي مرجع طفلها – أو كما إن أم القري هي مرجع المدن الصغري، كذلك تكون الأيات المحكمات مراجع للآيات المتشابهات . فالمتشابهات للفهم و التدبر، و لكن بعد الرجوع الي المحكمات ، فبغيرعون الآيات الأم لا يكون ما نإخذه من الآيات المتشابهات موضع اعتبار.

ما معني معرفة القرآن؟

عند تحليل القرآن و معرفة محتواه ، يتبادر إلي الذهن السؤال التاليك ايمكن تعرف القرآن و دراسته أصلا؟ أيمكننا أن نتدبر القرآن و نفكر في آياته. أم إنه لم ينزل لكي يتعرفه الناس، بل نزل لمجرد التلاوة و القراءة ، و لتيل الثواب و التبرك و التيمن ليس غير؟ قد يبدو لأول وهلة أن لا داعي لأيراد مثل هذا السؤال، و إنه لا شك في أن القرآن نزل لكي يعرف. و لكن بما انه قد ظهرت في دنيا الاسلام أمور يؤسف لها بحيث ما زالت ذات جذور لأفكار منحطة و خطيرة في مجتمعنا ، فقد رأينا إن علينا أن نورد ما يوضح هذا الجانب من الأمور.

قبل ثلاثة قرون أو أربعة، ظهر من بين علماء الشيعة افراد اعتقدوا إن القرآن ليس حجة، و رفظوا القبول بثلاثة من أصول الفقه الأربعة التي كان علماء الاسلام قد اعتبروها معياراً لمعرفة المسائل الاسلامية، و هي : القرآن ، و السنة ، و العقل ، و الإجماع.

ففيما يتعلق بالإجماع كانوا يقولون : إن هذا من تقاليد أهل السنة فلا يمكن اتّباعه.

و بخصوص العقل انوا يقولون: كيف يجوز اعتماد العقل و هو كثير الأخطاء.

أما عن القرآن فكانوا يدعون من باب التقدير و الاحترام : إنه اكبر من أن نتمكن التافهين من البشر أن نطالعه و نتفكر فيه، بل إن الرسول و الأئمة وحدهم الذين يحق لهم أن يتلوا آياته. و هؤلاءهم الأخباريون. لذلك كان مرجع الأخباريين الوحيد الجائز هو الأحاديث و الأخبار. و قد ينتابكم العجب اذا علمتم إن في بعض التناسير التي كتبها هؤلاء كانوا يدرجون الآية إذا كان لها ثمة حديث، و يغفلون إدراجها إذا لم يكن لها حديث، و كأنها ليست من القرآن . هذا لون من الظلم و الجفوة بحق القرآن.

و من البديهي إن مجتمعاً يهمل كتابه السماوي. كتاباً كالقرآن ، بهذه الصورة و يطرحه في زواية النسيان، لا يمكن أن يكون سائراً علي هدي القرآن.

كان هناك غير هؤلاء جماعات أخري أيضا، اعتقدت بضرورة إبعاد القرآن عن أيدي العامة. و من هؤلاء الاشاعرة الذين كانوا يعتقدون بأن معرفة القرآن لا تعني تدبر آياته ، بل تعني فهم معانيها الحرفية ، أي إن علينا أن نقبل بالمعني الظاهر للأيات، و لا شأن لنا بعد ذلك بالباطن.

لا شك في إن هذه النزعة تؤدي إلي الأنحراف و الضلال، و ذلك هؤلاء كانوا مضطرين إلي توضيح معاني الأيات و لكنهم ، بالغائم عمل العقل ، لم يكن امامهم من القرآن إلا مفهوم هو أقرب إلي مفهوم العوام. و هم لذلك سرعان ما انحرفوا عن جادة الصواب، و اعتنقوا معتقدات غير صحيحة.

.....

من ذلك مثلا تجسيدهم الله (سبحانه) و مئات أخري من المعتقدات الخرافية، كأمكان رؤية الله تعالي عيانا و مخاطبته، و إلي غير ذلك.

و في مقابل هذه الجماعات التي تركت القرآن فعلا، ظهرت جماعة أخري جعلت من القرآن وسيلة للوصول الي غاياتهم و أهدفهم. أخذ هؤلاء يؤولون القرآن كيفما اقتضت منافعهم، و نسبوا إلي القرآن أمورا لم تكن فيه إطلاقا . و كانوا يردون علي كل اعتراض قائلين بأنهم وحدهم الذين يدركون المعاني الباطنية للقرآن و إن تأويلاتهم تلك متأتية من معرفتهم بآياته.

إن أبطال هذه الجماعات فئتان: الفئة الأولي هم الاسماعليلية و يعرفون بالباطنية ايضاً. و الثانية هم المتصوفة. و اكثر الاسماعيلية في النهد و قليل منهم في ايرانو و قد بلغ بهم الامر أنهم أنشأوا حكومتهم اياضً، و هي الدولة الفاطمية في مصر. و يعرف الأسماعيليون بانهم من الشيعة الذين يعترفون بسنة من الأئمة. غير أن المقطوع به، و بإجماع و اتفاق تام من علماء الشيعه الاثني عشريه، إن هؤلاء أبعد ما يكونون حتي عن غير الشيعة. أي إن أهل السنة الذين لا يرون في أئمة الشيعة ما يري الشيعة فيهم، أقرب إلي التشيع من هؤلاء المحسوبين علي الشيعه.

إن هؤلاء بسبب تشبثهم بالباطنية، أساءوا إلي الأسلام و خانوه خيانات عديده في التاريخ الأسلامي، و كان لهم دور كبير في إيجاد الأنحرافات في الأمور الأسلام.

بعد هؤلاء نأتي إلي المتصوفة الذين كانت لهم اليد الطولي في تحريف الآيات و تأويلها بحسب عقائدهم الخاصة . و كمثال علي ذلك . نذكر نموذجا من تفاسيرهم، ليتبين طرز تفكيرهم ، بحيث يستطيع القاريء أن يقرأ المفصل من هذا المجمل:

لقد جاء في القرآن ذكر ابراهيم و ابنه اسماعيل ، و أن الله قد أمر ابراهيم في المنام عدة مرات بذبح اسماعيل تقربا إليه. و يعجب ابراهيم أول الأمر لهذا الأمر، و لكنه بعد تكرر الرؤيا يؤمن لذلك و يسلم امره لله ، و يفاتح ابنه بذلك ، فيستسلم اسماعيل استسلام المخلص له.

«يَا بُنَيْ إِنِّي أَرَي فِي ٱلْمَنَامِ أَنِي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَي قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاء

.....

اَللهُ مِنَ ٱلصَابِرِينَ».

المقصود هنا هو هذا التسليم أو الرضا بقضاء الله، و لذلك عندما قام الأب و الءبن، بكل خلوص فية و نقاء سريرة بإعدات العدة لتنفيذ أمر الله تعالي، توقف التنفيذ بأمر من الله ايضا. اما المتصوفة فيرون في تفسير هذه الأية إن ابراهيم هو العقل، و إن اسماعيل هو النفس، و إن العقل ههنا كان ينوي قتل النفس.

من الواضح ان هذا المفهوم لا يعدو أن يكون تلاعباً بالقرآن ، و لوناً من المعرفة التحريفية. إن هذه المفاهيم المنحرفة المبنية علي الأهواء الشخصية. هي التي قال فيها الرسول (ص):«من فسر القرآن برءيه فليتبوأ مقعده من النار». إن هذا التلاعب خيانة للقرآن بل خيانة عظمي.

و القرآن، في قبال جمود الأخبارين و جفاف تفكيرهم ، و كذلك في مواجهة انحرافات الباطنية و مفاهيمهم الخاطئة و أمثالهم ، يعرض سبيلا و سطاهو التأمل و التدبر الخالص المنصف و بغير تغرض. إن القرآن لا يحرض المؤمنين فحسب علي التفكير في آياته، بل إنه يحث المخالفين له علي ذلك أيضا، و يطلب منهم ألا يتحزبوا ، بل يتأملوا في آياته ، و يقول:

«أفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلقُرآنَ أمْ عَلَي قُلُوْبٍ أقْفَالُهَا».

و في آية اخري يقول:

«كِتابٌ أنْزَلناهُ إلَيْكَ مُبَارَكَ لِيدّبَرُوا آيَاتِهِ وَ لْيَتَذَكَّرَ أُولُواٱلأَلْبَابِ».

اي انه كتاب غريز الثمر، كثير البركة، و إن تدبر آياته لا يعني تقبيله و من ثم وضعه علي الرف، بل يعني تدبر آياته و التفكير فيها.

إن هذه الأيات و عشرات أُخري في توكيد تدبر القرآن ، تجيز كلها تفسير القرآن و تؤيده،و لكن لا التفسير المبني علي هوي النفس، بل المبني علي أساس من الصدق و الأنصاف و التجرد عن الغرض. فعندما نتأمل في القرآن صادقين و غير مغرضين، لن تكون هناك ثمة ضرورة إلي أن تكون لنا القدرة علي حل كل مسائله.

إن القرآن من هذا المنظور أشبه بالطبيعة. ففي الطبيعة كثير من الأسرار التي

.....

ما زالت تفتقر إلي الحل، و ليس بالأمكان حلها في الظروف السائدة فعلا، و لكنها سوف تحل في المستقبل . ثم إن الأنسان في سعيه لمعرفة الطبيعة ينبغي عليه أن يلائم بين تفكيره و الطبيعة كما هي، لا أن يفسر الطبيعة علي حسب ما يشاء هو. و كذلك هو القرآن ، فانه لم ينزل لزمان واحد، و لو لم يكن الأمر كذلك ، لانكشفت أسراره منذ أمد ، و لفقد هذا الكتاب السماوي كل جاذبيته وجدته و تأثيره. غير أننا نري إن الرغبة في تدبره و التفكير فيه و استكشاف جديده لم يزل باقياً كما كان ، و هذه ملاحظة سبق أن شرحها النبي و الأئمة.

فقد ورد في حديث عن الرسول (ص) أنه قال: «مثل القرآن كمثل الشمس و القمر، فهو مثلهما في جريان دائم». أي إنه ليس علي و تيرة واحدة و لا هو قد سمرّ في مكان واحد. و قال ايضاً:«القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق».

و جاء في عيون اخبار الرضا (ع) عن الامام جعفر الصادق (ع) أنه سئل عن السرفي إن القرآن تزداد طراوته وجدته بتقادم الزمان عليه و بتكرار تلاوته . فقال : لأن القرآن لم ينزل لزمان دون زمان و لناس دون ناس. بل إنه نزل لكل الازمان و لكل الناس. إن منزّلة قد صاغه بحيث إنه يتقدم علي كل تطور في العلم و التفكير ، علي الرغم من التطور الهائل في المعارف و العلوم، كما إنه يعرض من المعاني و المفافيم القابلة للدرك بما يتسع لظرفية الزمان و اشباعه

.....

1 – اما من حيث اتجاه الأثر، و هل كان نحو تغيير سير التاريخ باتجاه سعادة البشر و رفاههم، ام باتجاه التفسلح و الانحطاط، او انه بسبب هذا الكتال ظهرت في التاريخ وثية و حركة. فسرت في عروق المجمتعات البشرية دما، جديدة، او انه العكس، ذلك موضوع خارج عن طاق هذا البحث.

2 – الحاقة. 44 – 46.

3 – إذ يمكن أن يكون حافظ مجرد فنان لا مفكراً و لا علالماً، و لكنه أيضاً يمكن يكون في الوقت نفسه فنائاً و عالماً معا.

إنما الذي تسلم به هو أن حافظاً كان عالماً قبل أن يكون شاعراً، و كان عارفاً بالمفكرين الآخرين عن طريق كتبهم، كالشعراء و الأدباء و المفسرين و الفقهاء، و المتصوقين علي وجه الخصوص، و لقد كان أكثر علمه بهم عم طريق أساتدته . إنما نحن اليوم نعرف حافظاً شاعراً أكثر من كونه عالماً. بينما كان في أيامه عالماً و إن نظم الشعرأ، ففي الكتب التي تم تأليفها في زمانه و فيها ذكر له، نجده موصوفاً بما يوصف به العملاء لا الشعراء.

فاذا كان هذا العالم واقفاً علي آداب زمانه، و مطلقاً علي سير العلماء و سلوكهم، و متعمقاً في معرفة متصوفة عصره، بحيث أنه استطاع أن يضع كل ذلك في الشعر بأفضل مما يستطيعه أي شاعر آخر، فهل كان عرضه لتلك الافكار متأثراً يأخذ ممن سبقه؟ أم إن ذلك كان من ابتداعه و ابتكاره؟ و هل إن لمحي الدين الأندلسي، الذي بعد أيا لاتصوف الأسلامي، أي أثر علي حافظ؟ أفهل يستعبد أن يكون لابن الفارض المصري – و هو أسبق من حافظ و لا يقل مكانة في الأدب الصوفي العربي عن مكانة حافظ في الادب الفارسي – تأثيره في التكوين الشكلي لأفكار حافظ؟ إن وظيفة (معرفة الأصل) هلي البحث في أمثال هذه المسائل و إيجاد الأجابة عليها.

4 – النحل 44. 5 – الجمعة 2.

6 – اكر مادر شاء بانو بدي مراً سشيم و رز تابه زانو بدي

7 – كُفّ شاه محمودٍ كِشورگشاي نُه اندر نُه آمد شه اَنْدر چهار

8 – معاني هرگز اندر حرف ناید كه بحر بيكران در ظرف ناید

.....

9 – القيامة ، 22 و 23.

10 – الانعام ، 103.

11 – آل عمران 7.

12 – في مؤتمر «التقريب بين المذاهب الاسلامية» الذي عقد قبل حوالي 35 سنة. و الذي جمع اصحاب مختلف المذاهب الاسلامية لا زالة كل سوء تفاهم، حضر ايضاً عدد من الاسماعيلين ، غير أن الشيعة و السنة الحاضرين اتفقوا بالاجماع علي عدم اعتبار هؤلاء من جملة الفرق الأسلامية ، و منعوهم من الأشتراك في المؤتر.

13 – الصافات ، 102.

14 – إنه للما يؤسف له في هذا الزمان أن تكون سوق المفاهيم المنحرفة و التفاسير الاعتباطية رائجة، فنظهر الآراء الاإسلامية بلبوس الأسلام. و لقد أعلن الاستاذ الشهيد حرباً شعواء علي أمثال هذه الامور، فبارز بافكار، و بقلمه الجبار، حتي انه في آخر الأمر ضحي بحياته في سبيل ذلك تضحية صادقة – النأشر.

15 - سورة محمد، 24.

16 – سورة ص ، 29.

.....

الفصل الاول

معرفة القرآن تحليليا

تريد في هذا الفصل ان نبحث في محتويات القرآن.و طبيعي اننا لو أردنا تناول موضوعاته موضوعاً لاقتضانا ذلك أمناناً من الورق. و عليه فسوف نعالج الكليات اولا، و من ثم نعود علي بعض من الجزئيات.

يتناول القرآن كثيراً من المطالب بالبحيث، و في غضون ذلك يؤكد بعضها توكيداً اكبر دون بعض. و من جملة الأمور التي جري بحثها في القرآن إله الكون و الكون. علينا أن نري كيف ينظر القرآن إلي الله. هل يعرفه معرفة فلسفية ، أم معرفة تعبدية؟ هل يذهب، مثل التوارة و الانجيل ، مذهبا دينياً، أم أنه بسير كما تسير الديانات الهندية، أم إن له مذهبه الحاص و المستقبل في معرفة الله؟

و الموضوع الآخر هو الكون . لابد لنا أن ندرك النظرة التي ينظر بها القرآن الي الكون. فهل ينظر الي الخليقة و الكون نظرة عبث و لهو؟ أم إنها نظرة الصدق و الحق؟ فهل يري جريان العالم يسير علي وفق سنن و نواميس، أم يراه يجري علي غير هدي أو قاعدة يحيث لا يبدو أي سيء سبباً لأي شيء آخر؟

و منجملة المسائل الكلية المطروحة في القرآن مسألة الأنسان . فلابد من تحليل نظرة القرآن إلي الأنسان . أتراه يتحدث عن الأنسان متفائلاً، أم إن نظرته إليه

.....

سلبية و متشائمة؟ أيري الأنسان حقيراً، أم يري أن له كرامة و عزة؟

و مسألة أخر هي مسألة المجتمع الأنساني. أفهل يري القرآن للمجتمع الأنساني أية اصالة ، أم يري الفرد هو الاصيل؟ و هل للمجتمع الأنساني في نظر القرآن حياة و موت و رفعة و انحطاط ، أم إن هذه الصفات تختص بالفرد فحسب؟ و هنا تدخل مسألة التاريخ، و كيف ينظر القرآن اليه. تري ما هي القوي المحركة للتاريخ ، و ما هو مقدار تأثير الفرد في التاريخ؟

هنا لك مسائل كثيرة دُخري يطرحها القرآن، و نحن نورد هنا سرداً لبعض منها: نظرة القرآن الي القرآن ، ثم مسألة الرسول في القرآن ، و كيف يعرف القرآن الرسول، و كيف يحادثه ... ثم مسألة تعريف المؤمن في القرآن ، و ماهية صفات المؤمنين ، و غيرها.

و لا شك ان لكل واحدة من هذه المسائل الكلية مسائل فرعية ، فمثلا عند الكلام علي الأنسان ، لابد لنا أيضا أن نتكلم عل الأخلاق ، أو إذا تحدثنا عن المجتمع ، لابد أن تتحدث عن روابط الأفراد ، و عن مسألة الأمر باملعروف و النهي عن المنكر. و عن مسائل الطبقات الأجتماعية... و غير ذلك كثير.

كيف يعرف القرآن نفسه

من الأفضل في تحليل القرآن أن نبدأ من ملاحظة رأية في نفسه ، و كيف يعرف نفسه . إن أول ما يطالعنا بهذا الشأن هو قوله إن هذه الكلمات و العبارات هي كلام الله . إنه يعلن صراحة إن الرسول ليس هو منشيء القرآ‹ ، بل إنه إنما يبين ما ينزل به روح القدس أو جبرائيل باذن الله.

و الأمر الآخر الذي يوضحه القرآن هو تعريف رسالته . و هي إنها هداية أبناء البشر و قيادتهم للخروخ بهم من الظلمة إلي النور:

«كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَاسَ مِنَ الظُلُمَاتِ إِلَي النُوْرِ».

و لا شك إن من مصاديق هذه الظلمات الجهالة. فالقرآن يقود البشر من ظلمة

.....

الجهل إلي نور العلم. و لكن لو كانت هذه الظلمات تنحصر بالجهل فحسب، فقد كان بامكان الفلاسفة أن يقوما بتلك المهمة، غير أن هناك ظلمات أخري أخطر بكثير من ظلمة الجهل، و لا يستطيع العلم أن يعالجها . فهناك مثلا حب المال، و الأنانية، و اتباع الشهوات ، و غيرها ... مما يعتبر من الظلمات الفردية الأخلاقية. و ثمة ظلمات اجتماعية كالظلم ، و التمييز ، و غيرهما ... و الظلم من مشتقات الظلام ، مما يوحي بنوع اجتماعية كالظلم ، و التمييز، و غيرهما ... و الظلم من مشتقات الظلام ، مما يوحي بنوع من الظلام الأجتماعي المعنوي، و إن مكافحة هذه الظلمات من شأن القرآن و الكتب السماوية الأخري.

يخاطب القرآن موسي بن عمران قائلا.

«أنْ أخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَي النُّوْرِ...»

انها ظلمات الظلم، ظلم فرعون و الفراعنة، و النور هو نور الحرية و العدالة.

ان مما التفت اليه المفسرون هو إن القرآن لا يورد كلمة «الظلمات» إلا بصئغة الجمع ، و مقرونة بالألف و اللام ، لتدل علي الاستغراق ، فتشمل كل ضروب الظلمات ، و لكنه يورد النور بصيغة المفرد. و هذا يعني إن الطريق الصحيح واحد لا أكثر ، بينما سبل الانحراف و الضلال عديدة. من ذلك مثلا الآية التالية:

«اللهُ وَلِيُّ الذِيْنَ آمَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَي النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أوْلِياؤُهُمْ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّوْرِ إلَي الظُّلُمَاتِ».

و هكذا يعين القرآن هدفه: تحطيم اغلال الجهل و الضلال و الظلم و التردي الأخلاقي و الأجتماعي. و بكلمة واحدة: القضاء علي الظلمات ، و الهداية نحو العدالة و الخير و النور.

معرفة القرآن

المسألة الأخري، مسألة معرفة لغة القرآن و تلاوته. يظن بعضهم إن القصد من تلاوة القرآن هو قراءته طمعاً في الثوب دون إدراك شيء من معاينة. هؤلاء هم الذين «يختمون» القرآن مرّات عديدة، و لكننا إذا سألنا أحدهم إن كان قد فهم معني ما يقرأ

.....

فسوف يعجز عن الجواب. إن قراءة القرآن بقصد تفهم معاينة أمر لازم و مطلوب ، لا بقصد الحصول علي الثوب فقط.

إن لإدراك معاني القرآن مستلزمات لابد من الأهتمام بها. إن ما يحصل عند القاريء الذي يريد تعلم كتاب ما. هو سلسلة من الافكار الجديدة لم تخطر له من قبل.

فههنا يكون العقل و قوة فكرالقاريء هما الفاعلان النشيطان . و فيما يتعلق بالقرآن يجب أن يكون التعلم و الادراك هما القصد من قرأته . و القرآن هو نفسه يقول:

«كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيدَّبَرُوا آياتِهِ وَ لْيَتَذَكَّرَ أولُوالأَلْبَابِ».

أن واحدة من وظائف القرآن التعليم. و هنا يخاطب القرآن عقل الانسان بلغة المنطق و الأستدلال . و لكن للقرآن لغة أُخري لا يخاطب بها العقل ، بل القلب، و يطلق علي هذه اللغة الثانية اسم الأحساس. فمن يريد أن يتعرف علي القرآن و أن يأنس به، عليه أن يعرف هاتين اللغتين، و أن يستفيد منهما معا، إذ إن الفصل بينهما يؤدي إلي الخطأ، سو سؤ الفهم، و ما هذا إلا خسران كبير.

إن ما نطلق عليه اسم القلب هو ذلك الأحساس العظيم و العميق الكامن في داخل الأنسان ، و قد يطلقون عليه أيضاً اسم الاحساس بالوجود ، أي ذلك الاحساس الذي يرتبط بالوجود المطلق. إن من يعرف التكلم بلغة القلب و يخاطب به الانسان، فانه يهزه من أعماق حياته و كنه وجوده و عندئذ لا يكون العقل وحده تحت التأثير، بل الوجود بأكلمه يكون متأثراً.

و إذا أردنا أن نضرب مثلا لغة الاحساس ، فاننا نضرب بالموسيقي مثلا لذلك. فالموسيقي ، علي اختلاف انواعها، تشترك في امر واحد، و هو إنها تعالج احساس الأنسان انها تهيج روح الاناسن و تغرقه في عالم خاص من المشاعر.

و بالطبع تختلف انواع الهيجانات باختلاف انواع الموسيقي.

فقد يمتاز نوع باثارته مشاعر البطولة و الحماس، فهو يخاطب الانسان بهذه اللغة. انكم تعرفون انهم يعرفون الموسيقي العسكرية و الاناشيد خلال الحروب. إن تأثير هذه الموسيقي يكون أحيانا من القوة بحيث إن الجندي المرتعد خوفاً من العدو

.....

داخل خندقه ، يندفع خارجاً متحدياً هجمات الهدو و يقابله بالهجوم.

و نوع آخر من الموسيقي قد تثير أحاسيس الشهوة، فيرتجي الأنسان ، و يرتمي في أحضان الشر. من الملاحظ أن هذا اللون من الموسيقي متفش و واسع الأنتشار، و لعله أقدر من أي شيء آخر علي هدم جدران العفة و الاخلاق. و هكذا الأمر فيما يتعلق بالغرائز و المشاعر الأخري ، التي يمكن السيطرة عليها و وضعها تحت المراقبة ، سواء عن طريق الموسيقي أو آية أخري.

إن من أرفع غرائز الأنسان و احساساته هي حسه الديني، و فطرية في البحث عن الله. فتوجه القرآن يكون نحو نخاطبة هذا الحس الشريف السامي.

القرآن نفسه يوصينا ان نقرأه بلحن لطيف و جميل. إن هذا اللحن السماوي، هو اللحن الذي يخاطب به القرآن فطرة الانسان الألهية و يجتدبها إليه. عند وصف القرآن ذاته يقول إنه يتكلم بلغتين ، فهو مرة كتاب الكفر و المنطق الاستدلالي، و مرة اخري كتاب المشاعر و العشق. و بعبارة أخري ، وليس القرآن غذاء العقل و الفكر بحسب ، بل هو غذاء الروح ايضاً.

و القرآن يؤكد موسيقاه الخاص توكيداً كبيراً. تلك الموسيقي التي يكون تأثيرها في استثارة مشاعر الانسان العلمية و السامية أقوي من كل موسيقي. فالقرآن يطلب من المؤمنين أن يقضوا بعض ليلهم في تلاوته. و أن يقرأوه كذلك خلال الصلاة عند توجههم الي الله . أنه يخاطب الرسول قائلاً:

«يَا ايهَا المُزَّمِّلْ قُمْ اللَّيْلَ إلاَ قَلِيْلاً نِصفُه...».

قم ناج ربك، و رتل القرآن في صلاتك .و الترتيل يعني عدم الاسراع في القراءة لئلا تتداخل الكلمات فلا تفهم ، و عدم الابطاء الي درجة فصم الرابط بين المعاني. يقول اقرأ القرآن بتأن و بتوجه الي المعني . و يضيف في آيات أخري في السورة نفسها مخاطباً الناس: إذا ما ألجأتكم أعمالكم اليومية، كالتجارة و الجهاد في سبيا لله . إلي فترة نوم اطول ، فلا تنسوا خلوة العبادة.

ان السبب الوحيد الذي كان يزيد نشاط المسلمين ، و قدرتهم الروحية،

.....

و خلوصهم، و صفاء بواطنهم ، هو موسيقي القرآن. لقد أحال نداء القرآن ، في فترة و جيزة، النفوس الخشنة الجافة في جزيرة العرب إلي مؤمنين ثابتة أقدامهم. تمكنوا من مصارعة أقوي سلطات زمانهم و القضاء عليهم. لم يكن المسلومن ينظرون الي القرآن علي أنه مجرد كتاب للدرس و التعليم فحسب، بل كانوا يرون فيه غذاء للروح ، و مادة لكسب القوة و ازياد الايمان. كانوا يتلونه أثناء الليل بينة خالصة. يناجون ربهم، و في النهار يهجمون علي الاعداء كالأسود الضارية. و لقد كان القرآن يتوقع هذا من المؤمنين به. إذ يقول مخاطباً الرسول:

«فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِيْنَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادَاً كَبِيْراً».

إن قصة حياة الرسول نفسها مصداق لهذا القول. فه بمفرده ، و بغير سند، يرفع القرآن، و يبدأ ثورته ، فيكون القرآن له كل شيء، يعدله الجند، و يهيء السلاخ و العدة ، و أخيراً يجبر عل الخصوع و التسليم ، و يجتذب افراد العدو لينحوا أمام رسول الله ، و هكذا يفي الله بما وعد.

عندما يسمي القرآن لغته بلغة القلب، إنما يقصد ذلك القلب الذي يريد أن يصقله و يهذبه بآياته و يثيره . و هذه غير لغة الموسيقي التي تغذي أحياناً رغبات الانسان الشهوانية . و هي كذلك غير لغة المارشات العسكرية و الاناشيد الحربية التي يغزفونها في الجيش لاستثراة روح الحرب في الجنود ، بل انها تلك اللغة التي تجعل من أعراب البادية مجاهدين قيل فيهم :«حملوا بصائرهم علي اسيافهم».

اولئك الذين وضعوا معارفهم و نظراتهم و فكارهم النيرة و مداركهم الألّهية و المعنوية علي اسيافهم التي شهروها في سبيل تلك المعتقدات . لم تكن لديهم منافع شخصيتة و لا مسائل فردية. و علي الرغم من أنهم لم يكونوا معصومين من الخطأ، و كانت تصدر عنهم أخطاء . إلا أنهم كانوا يمثلون مصداق القول : «قائم الليل و صائم النهار». كانوا دائما علي ارتباط عميق بالوجود، فيقضون ليلهم بالعبادة و نهارهم بالجهاد.

فالقرآن بالنظر لخصوصيته في كونه كتاباً للقلب و الروح، يثير الاشجان،

.....

و يسيل الدموع، و يهز الافئدة. و يصدق هذا حتي علي اصحاب الكتب الاخري:

«الَّذِينَ آتيْناهُمْ لألكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَ إذَا يُتْلي عَلَيْهِمْ قَالُوا أمَّنا بِهِ إنَّه الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا».

و يؤكد في آية أخري ن النصاري من أهل الكتاب أقرب إلي المسلمين من اليهود و المشركين:

«لِتَجِدَنَّ أشَدَّ لالنّاس عَدَاوَةً لِّلَذِيْنَ آمَنُوا اليَهُودَ وَ الَّذِينَ أشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلذيْنَ آمَنُوا الّذيْنَ قَالُوا إنّا نَصَارَي».

ثم يصف النصاري الذين يؤمنون عند سماع القرآن فيقول:

«و إذا سمعوا مَا انُزِلَ إلّي الرَّسُولِ تَرَي أعْيُنَهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمُع مِمَا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّاهِدِيْنَ».

و عند الاشارة الي المؤمنين عموماً يصفهم هكذا:

«اللهُ نَزّلَ أحْسَنَ الحَدِيْثِ كِتَاباً مُتَشَابّهاً مَثَّانِيَ تَقشَعِرُّ مِنْهُ جُلُوْدُ الّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إلي ذِكرِ لله».

في هذه و في كثير غيرها من الأيات (مثل الأية 58 من سورة مريم، و الأيات الاول من سورة الصف) يشير القرآن صراحة الي أنه ليس كتاباً علمياً و تحليلياً فحسب. بل إنه في الوقت الذي يستفيد فيه من منطق الأستدلال. كذلك يتحدث مع مشاعر البشر و أذواقهم، و يضع أرواحهم تحت تأثيره.

من يخاطبهم القرآن

من النقاط الأخري التي ينبغي استباطها من معرفة القرآن هي معرفة الذين يخاطبهم . إننا نجد في القرآن تعابير مثل :«هدي للمتقين»، و «هدي و بشري للمؤمنين»، و «و لينذر من حي». و هنا نتساءل : إن الهداية لا لزوم لها للمتقين . لانهم متقون.

و من جهة أخري نجد القرآن يعرف نفسه قائلا:

«إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرُ لِلعَالَمِيْنَ وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأهُ بَعْدَ حِينٍ».

.....

اذن ، هل نزل الكتاب لكل الناس أم للمؤمنين دون غيرهم؟ و في آية أخري يخاطب الله رسوله فيقول:

«وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ».

سيأتي توضيح ذلك مفصلا عند الكلام علي التاريخ في القرآن. و لكننا هنا نجمل قائلين إن الأيات التي تخاطب أهل العالم كلهم، يقصد منها القول في الواقع بأن القرآن لا يختص بقوم أو بجماعه بعينها ، فمن يقترب صوب القرآن ينج.

أما الآيات التي تخاطب المؤمنين و المتقين، فالمقصود هو الاشارة إلي نوع الناس الذين سيجتذبهم القرآن اليه، و النوع الذي سيبتعد عنه في نهاية الأمر. و القرآن لا يشير إلي قبيلة بعينها أو قوم معينين علي أنهم عن المرتبطين به و المؤيدين له. و هو لا يقول إنه يختص بقوم دون قوم ، و لا هو يضع اصبعه علي منافع طبقة معينة كما تفعل باقي المذاهب ، فلا يقول إنه جاء لحماية مصالح الطبقة الفلانية فحسب. إنه لا يقول مثلا إنه جاء ليحمي مصالح الطبقة العاملة دون غيرها ، أو لتأييد طبقة الفلاحين فقط:

بل إنه يؤكد كونه كتابا جاء ليبسط العدل.

و يقول بشأن الرسل:

«وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتابَ وَ الْمِيْزَانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ».

يريد القرآن القسط و العدالة لكل المجتمعات الانسانية ، لهذه الطبقة أو لتلك ، أو لقوم دون قوم. يريد القرآن ، بخلاف بعض المذاهب ، كالنازية ، أن يجتذب الناس، فيضع اصبعه علي مواطن عصيبتهم .و كذلك هو، بخلاف الماركسية مثلا، لا يستند إلي ما في الانسان من روح النفعية و المصلحية، و لا يحركه عن طريق منفعته.

و كما إن القرآن يقول باصالة الانسان العقلية . يقول أيضاً باصالته الوجدانية و الفطرية. و إن فطرة البحث عن الحق و العدالة هي التي تحمل الانسان علي السير و الحركة.

لذلك فرسالة الرسول ليست موجهة إلي العمال أو الفلاحين أو المحرومين أو المستضعفين. إن القرآن يخاطب كلا الظالم و المظلوم، يدعوهما الي طريق الحق.

.....

موسي يبلغ رسالته لبني إسرائيل و لفرعون كليهما ، و يطلب منهما الأيمان بالله و المسير في طريقة. كذلك عرض محمد (ص) رسالته و دعوته علي سراة قريش، و علي امثال أبي ذر و عمّار . يورد القرآن نماذج عديدة لتحريض الفرد علي التمرد علي ذاته، و الرجوع عن طريق الضلال و الفساد الي طريق التوبة . لا شك إن القرآن ذاته يعلم إن توبة الذين كانوا يعيشون في رفاه و نعيم أعب بكثير من توبة المحرومين و المظلومين ، فهؤلاء يسيرون بمقتضي الطبع في طريق العدالة . أما الاولون فعليهم أن يتنازلوا عن مصالحهم الشخصية و امتيازاتهم القبلية و أهوائهم .

يقول القرآن إن اتباعه هم ذووا الارواح الطاهرة النقية . و إن تبيعة هؤلاء للقرآن متأتيه من حبهم الفطري للبحث عن الحقيقة و العدالة ، و ليس لميولهم الدنيوية و منافعهم المادية و أهوائهم الخاصة.

.....

1 – سورة ابراهيم ، 1.

2 – سورة ابراهيم ، 5.

3 – سورة البقرة ، 257.

4 – سورة ص ، 29.

5 – لقد قيل الكثير في شرق العالم و غربة عن هذا الحس الديني. إننا هنا سوف نوجز أقوال عالمين من علماء العالم اوّلهما هو أنشتاين. ففي إحدي مقالاته يتطرق إلي الدين و يقول إنه يعتقد بأن في العالم عموماً ثلاثة أنواع من الأديان :

6 – كان الأئمة (ع) يقرأون القرآن بكثير من الانفعال و التهيج بحيث كان المستطرقون إليهم يتوقفون عنوة و تنقلب احوالهم و يجهشون في البكاء.

7 – سورة المزمل، 1 و 2.

8 – جاء في دعاء الامام زين العابدين (ع) لختم القرآن : «و اجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مونساً».

أي امنحنا الفهم و العشق لنألف كتابك و نأنس به في ظلمات الليالي.

9 . سورة الفرقان 52.

10 – يتحقق وعد الله الحق هذا في زماننا ايضا، فيظهر رجل من ذرية الرسول، يؤمن ، كجده ، بالقرآن وحده، فينزل بجند الكفر و جبش الباطل هزيمة مهلكة – الناشر.

11 – في الخطبة رقم 193 من خطب النهج البلاغة المعروفة بأسم «المتقون» يعدد امير المؤمنين (ع) صفات المتقين. و بعد أن يذكر كيف هم قولاً و فعلاً. يصف حالهم في الليل ، أو كما يقول سعدي: يصف ليالي رجال لله قائلا:«أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن، يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم» أي إنهم يقرأون القرآن قراءة تفهم و تأمل ، لاكما يقرأ بعضنا القرآن اليوم ، بغير أن تفهم شيئاً من معناه . و هم يتأونه بلحن محزون خاص. ينبعث من قلوبهم ، و اذا ما بلغوا آية فيها إشارة إلي رحمة الله، نظروا بشوق، و إذا ما بلغوا آية تشير إلي غضب الله . هلعت قلوبهم، و كأنهم يسمعوم صراخ أهل النار.

.....

2 – سورة القصص، 53.

13 – سورة المائدة، 82.

14 – سورة المائدة ، 83.

15 – سورة الزمر ، 23.

16 – سورة ص ، 87.

هذه واحدة من آيات القرآن العجيبة . فنعد نزولها كان الرسول (ص) في مكة، و كان يحادث أهل إحدي لقد كان مما ينير ضحك الناس أن يسمعوا شخصا وحيدا يقول بكل اطمئنان : إن خبر هذه الآية سيأتيهم فيما بعد ، أي سيعرفون ما فعل هذا الكتاب بالعالمين في مدة و جيزة.

17 – سورة الانبياء ، 107.

18 – سورة الحديد، 25.

19 – حيث في هذه الحالة لا تكون العدالة و الحق من اهداف أتباعه، بل سيكون هدفهم الوصول الي منافعهم و اتباع رغباتهم.

.....

الفصل الثاني

العقل في نظر القرآن

تكلما في الفصل السابق باختصار علي لغة القرآن ، و ذكرنا إن القرآن يستعين بلغتين في إبلاغ رسالته ، و هما لغة الاستدلال المنطقي ، و لغة الاحساس، و لكل من هاتين اللغتين مخاطبوها المختصون . فالاولي تخاطب العقل. و الثانية تخاطب القلب في هذا الفصل سوف نتناول بالبحث وجهة القرآن في العقل.

علينا أن نعرف إن كان القرآن يعتبر العقل سندا، أو ، كما يقول علماء الفقه و الاصول، هل العقل حجة؟ أي إذا كان المكتشف حقا من مكتشفات العقل الصحيحة. فهل ينبغي علي البشر أن يحترموه و أن يعلموا بموجبة أم لا؟ فاذا عمل به و ارتكب في ذلك أحيانا خطأما، فهل سيغذره الله علي ذلك أن سيعاقبه؟ و اذا لم يعمل به، فهل سيعاقبة الله علي عدم العمل به مع إن عقله قد حكم بذلك ،أم لا؟

دلائل كون العقل حجة

إن كون العقل حجة و سنداً في نظر الاسلام أمر ثابت ، كما إن علما الاسلام جميعاً، و منذ البداية و حتي الآن – عدا مجموعة صغيرة – لم يشكوا في سندية العقل ، و اعتبروه أحد مصادر الفقه الاربعة.

.....

1) الدعوة الي التعقل في القرآن

بما اننا نبحث في القرآن ، فلا بد لنا من الروجوع الي القرآن نفسه للحصول علي الدليل لاذي يثبت كون العقل حجة. إن القرآن يضع توقيعه علي مستند سندية العقل بطرق مختلفة. و أوكد : بطرق مختلفة. فمن الآيات يمكن أن نعد ستين أو سبعين آية وردت في القرآن تشير إلي أن موضوعا ما قد طرح لكي يتدبره العقل. و لنضرب مثلا احدي الآيات العجيبة في القرآن:

«إنَّ شَرَ الدَّوَابِ عِنْدَاللهِ الصُّمُ البُكْمُ الْذِيَنَ لاَ يَعْقِلُونَ».

من الواضح بالطبع ، إن المقصود بالصم البكم ليس العضوي منهما، بل المقصود هو الجماعة من الناس الذين لا يريدون أن يسمعوا الحقيقة، و إذا سمعوها لا يعترفون بها بألسنتهم . فالاذن التي تعجز عن سماع الحقائق، و لا تعجز عن سماع لغو الكلام الفارغ، لهي في القرآن أذن صماء، و اللسان الذي يقتصر علي الشقشقة و الهراء ، لهو في القرآن لسان أبكم.

أما «الذين لا يعقلون» فهم الذين لا ينفعهم تفكيرهم. و هؤلاء لا يراهم القرآن جديرين بصفة (الانسان)، فأدرحهم في سلك الحيوانات و الدواب، فيخاطبهم بهذا المنظور.

و في آية أخري تطرح مسألة التوحيد، بقوله:

«وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تُؤْمِنَ إلاّ بِأذْنِ اللهِ».

و علي اثر طرح هذه المسألة الغامضة التي لا يتسع القول لدركها . تستأنف الأية قولها:

«وَ يَجْعَلِ الرِّجْسَ عَلَي الْذِيْنَ لاَ يَعْقِلُوْنَ».

في هاتين الأيتين اللتين اوردتهما مثالين ، يدعو القرآن إلي إعمال العقل بدلالة التطابق ، حسب تغبير أهل المنطق. هنالك آيات كثيرة أخري يؤكد فيها القرآن سندية العقل بدلاله الالتزام . اي إنه يتكلم بأمور يستحيل قبولها دون القبول بسندية العقل

.....

و حجته. فهو مثلا يطلب من الخصم استدلالاً عقليا ، حيث يقول:

«قُلْ هَاتُوْا بُرْهَانَكُمْ».

أي إنه يريد أن يبين ، بدلالة الالتزام ، إن العقل حجة و سند. أو إنه لكي يثبت وحدة الوجود صراحة بعتمد القياس المنطقي:

«لَوْ كانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا».

و هنا يقم القرآن قضية شرطية ، فقد استثني المتقدم و أهمل المتأخر. إن القرآن ، بتوكيده العقل ، يريد إبطال أقوال بعض الأديان التي تقول إن الأيمان غريب علي العقل ، و إنه ، لكي يؤمن المرء، عليه أن يعطل عمل العقل، و أن يكتفي بعمل القلب، لكي يدخله نور الله.

2) الاستفادة من العلة و المعلول

إن من الادلة الأخري علي قول القرآن باصالة العقل هو تبيان بعض المسائل باستخدام العلية و المعلولية.

فالعلة و المعلول، و أصل العلية ، قواعد للفكر العقلاني، و هذا ما يحترمه القرآن و يعمل به. و علي الرغم من أن القرآن كلام الله، و أن الله هو خالق العلة و المعلول، و أن الكلام يدور علي ماوراء ما تقع العلة و المعلول دونه ، فانه مع ذلك لا يغفل عن ذكر السببية و المسببية لهذا العالم، و يضع الوقائع و الظواهر تحت سيطرة هذا النظام.

من ذلك الأية التي تقول:

«إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّي يُغَيِّرُوا مَا بِأنْفُسِهِمْ».

و هو بهذا يريد أن يقول إنه مع إن كل المصاير بيد الله، فان الله يحمل البشر مصايرهم بسبب اختيارهم و تصميمهم و عملهم، و لا يقوم يعمل جزافا، بل حتي المصاير لها نظام، و لن يغير الله مصير مجتمع علي عواهنة و بغير بديل، إلا اذا غير المجتمع ما به، كأن يغير نظامه الأخلاقي أو الأجتماعي...

.....

و القرآن من ناحية اخري يحث المسلمين علي النظر في احوال الاقوام السالفة و مصايرها، يستخلصون منها الدروس و العبر. من البديهي إنه لو كانت مصاير الاقوام

.....

و الملل و انظمتها قد سارت خبط عشواء ، و مصادفة . أو لو كانت تلك المصاير مفروضة من فوق. لما كان ثمة داع لدرس أو عبرة . فبهذا التوكيد يريد القرآن أن يشير إلي أن مصاير الاقوام تتحكم بها أنظمة واحدة ، أي لو تشابهت ظروف مجتمع ما مع مجتمع آخر لتشابه مصيراهما.

و قد جاء في آية اخري:

«فَكَأَيِّ مِنَ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَي عُرُوشِهَا وَ بِئْر مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْر مَشِيد. أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذانٌ يَسْمَعُوْنَ بِهَا».

نجد في كل هذا ان قبول النظم بدلالة الالتزام يؤيد النظام المبني علي العلة و المعلول. و القبول بحجة و العلة و المعلول. قبول بسندية العقل.

3) فلسفة الاحكام

من الدلائل الاخري علي القبول بحجة العقل في نظر القرآن، هو القول بوجود فلسفة للدساتير و الاحكام . أي إن اللغة في وضع الدستور هي المصلحته. يقول علماء الاصول ان المصالح و المفاسد تتدرج في سلسلة علل الاحكام . فمثلا ، يقول القرآن : اقيموا الصلاة.
ثم يذكر في مكان آخر فلسفة هذا الامر:

«إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَي عَنِ الفَحْشَاءِ وَ المُنْكَرِ».

فيشرح الأثر الروحي للصلاة ، و كيف أنها ترتفع بالانسان عن الفحشاء، فيبتعد عن المفاسد و الموبقات . أو أنه يذكر الصوم، و يأمر الناس به، ثم يقول:

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَي الَّذِيْنَ مِنْ قَبلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ».

و هكذا الامر فيما يتعلق باحكام اخري، كالزكاة و الجهاد، فقد بين القرآن في جميع الموارد مردوداتها الفردية و الاجتماعية. و عليه فان القرآن يمنح هذه الاحكام جانبها

الدنيوي. علي الرغم من كونها سماوية و من الأعلي ، و يطلب من الانسان أن يتأملها ، و يتفكر فيها، لكي يستبين له كنه الامور، و لئلا يحسبها مجرد سلسلة من

.....

الرموز أسمي من فكر البشر.

4)مكافحة شطحات العقل

ثمة دليل آخر، اقوي مما سبق، علي اصالة العقل في نظر القرآن ، و هو مكافحة القرآن لشطحات العقل. و لكي توضح هذا الأمر لابد لنا من إيراد مقدمة قصيرة.

لا شك ان فكر الانسان يقع في الخطأ في كثير من الاحيان ، و هذا أمر معروف و شائع ، و لكنه ليس مقصوا علي العقل ، فالحواس و المشاعر تخطيء، أيضا، و قد أحصوا لحساة البصر عشرات الانواع من الاخطاء . ففيما يتعلق بالعقل، كثيراً ما يتفق ان يستدل الانسان علي امر، و يتوصل الي نتيجة، و من ثم يتضح ان استدلاله كان خطأ من أساسه . و هنا يطرح هنا يطرح هذا السؤال نفسه: أيجب علينا أن نلغي عمل العقل بسبب خطائه هذا، أم ينبغي أن نوجد وسائل و أسباب تحول دون العقل و ارتكاب الخطأ؟ في الرد علي هذا السؤال يقول السفسطائيون إن الاعتماد علي العقل غير جائز. بل إن الاستدلال لغو لا طائل وراءه. و يرد الفلاسفة عليهم ردودا مفحمة، قائلين، مثلا، إن الحواس تقع ايضا في الخطأ كالعقل، غير إن أحدا لم يحكم بتعطيل الحواس و بعدم استعمالها. و لما لم يكن بالامكان الاستغناء عن العقل، اضطر المفكرون الي الحيلوله دون وقوعه في الخطأ.

و في غضون بحثهم في هذا الموضوع لا حظوا أن كل استدلال يتكون من قسمين : المادة، و الصورة، كما هي الحال عند تشييد عمارة، اذ نكون بحالة الي السمنت و الحديد و الجص الخ.. (المادة) و إلي هيكل البناء و شكله (الصورة) . و لكي تبني العمارة علي خير ما يكون ، علينا أن نهيّء أفضل المواد، و أجمل خريطة متكلمة لا نقص فيها. كذلك الامر في الاستدلال، فلكي يكون صحيحاً لابد أن تكون مادته و صورته صحيحتين . و للتوصل الي صورة صحيحة للاستدلال ، ظهر منطق ارسطو، أو المنطق الصوري، و كانت وظيفة المنطق الصوري هذا أن يبين صحة صورة الأستدلال، أو عدم صحتها ، فيعين العقل لكيلا يخطيء في صورة الأستدلال.

إن القضية الرئيسة في ضمان صحة الأستدلال هي إن المنطق الصوري وحده لا يكفي لأثبات صحة الأستدلاله فهذا المنطق إنما يضمن جانبا واحدا، و لكي نطمئن إلي صحة مادة الأستدلال لابد من اللجوء إلي منطق المادة أيضا ، أي إننا نحتاج إلي معيار بقيس به المادة الفكرية كذلك.

لقد سعي علماء من أمثال «بيكن» و «ديكارت» لوضع منطق لماأه الأستدلال، مثلما وضع أرسطو منطقه لصورة الأستدلال. و لقد نجحوا في ذلك إلي حدما، و لكنهم لم يبلغوا به الكمال الذي اتصف به منظق أرسطو. و إن استطاع أن ستيعين به لدرء أخطاء الأستدلا. و لكن الذي قد يثير عجبكم هو أن القرآن قد عرض بهذا الخصوص أموراً لها علي مقترحات أمثال ديكارت فضل التقدم و تقدم الفضل.

منشأ الخطأ في نظر القرآن

من جملة ماشيء الخطأ التي ذكرها القرآن هي إن الانسان يأخذ الشك مأخذ اليقين. إذا تقيد الانسان دائما باليقين و لم يقبل بالظن، فلن يقع في الخطا . و هذا ما يؤكده القرآن كثيرا، حتي إنه يصرح بأن أكبر مزالق الفكر البشري هو اتباعه الظن.

و في مكان آخر يخاطب النبي قائلا:

«إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مِنْ في الأَرْضِ يُضلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَ إِنْ هِمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ».

و فيس آيه اخري:

«وَ لاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ».

هذه تذكرة تصدر من القرآن لأول مرة في تاريخ البشر، تنهي الأنسان عن ارتكاب مثل هذا الخطأ.

المنشأ الثاني لحصول الخطأ في مادة الأستدلال، و بخاصة في الامور الاجتماعية، هو التقليد . فبعض الناس يثقون بصحة الأمر مادام المجتمع يثق بصحته.

أي إن الأمر المقبول عند المجتماع ، او إن الأسلاف الأقدمين قد ارتضوه ، يكون

مقبولا عند الجيل الحاضر ايضاً.

أما القرآن فيقول: عليكم أن تزنوا كل أمر بميزان العقل. لا أن تثقوا بكل ما كان أجدادكم يفعلون ، و لا أن تنبذوه كليا لهذا السبب. ثة مسائل كثيرة طرحت في الماضي، وكانت خطأ في الوقت نفسه، و لكن الناس تقبلوها . و ثمة مسائل أخري كانت صحيحة في زمانها ، و لكن الناس رفضوها من باب الجهل . لابد من أخذ رأي العقل في صحيحة في زمانها ، و لكن الناس رفضوها من باب الجهل، لابد من إخذ رأي العقل في قبول الامور أو رفضها، لا أن نقلد الأخرين فيها تقليداً أعمي. و القرآن يضع اتبّاع الآباء و الأجداد ه في معظم الأحوال ، في تعارض مع العقل.

«وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءُنا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاوءُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاًوَ لاَ يَهْتَدُونَ».

يوكد القرآن إن قدم الفكرة لا يكون دليلا علي صحتها أو خطأها . إن لتقادم الزمن أثراً في الأمور الماديه. و لكن حقائق الوجود لا يمكن أن يصيبها البلي مهما تقدام عليها الزمان . «إن اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّي يُغَيِّرُوُا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» تظل صادقة ما دامت الدنيا قائمة . يقول القرآن إنه تجب مواجهة الأمور بسلاح العقل و الفكر. فلا ينبغي نبذ عقيدة صحيحة لمجرد كون بعضهم يلصها بالناس، و لا أن نتقبل اخري لمجرد كونه تقترن باسم هذا أو ذاك من الشخصيات المعروفة. بل يلزم القيام بالدرس و التحقيق في كل المسائل.

من العوامل المؤثرة في حصول الخطأ و المذكورة في القرآن هو اتباع هوي النفي، و ميولها ، أغراضها المريضة. و في ذلك يقول مولوي ما مضمونه : إذا ما برزت الاغراض حجب الفن / و مدّمئة ستار بين القلب و العين. فما من انسان استطاع ان يكون سليم التفكير الا إذا ابتعد عن شر التعرض و التحيز. أي إن العقل يستطيع أن يعمل في محيط يخلو من أهواء النفس.

هنا لك بهذه المناسبة ، حكاية تروي عن العلامة الحلي جديرة ان نضرب بها مثلا هنا. سئل العلامة الحلي مرة عن مسألة فقهية ، و هي أنه إذا مات حيوان في بئر و بقيت الميتة النجسة في البئر، فكيف يمكن الاستفادة من ماء البئر؟ و قد حدث من

باب المصادفة و التفاق أن وقع حيوان ميت في بئر دار العلامة الحلي نفسه. الأمر الذي اضطر معه إلي يستنبط لنفسه حكماً شرعياً بهذا الشأن. لم يكن أمامه غير طريقين: فإما أن يعمي البئر نهائيا، و يستفيد من بئر أخري، أو أن يستخرج مقداراً معيناً من ماء البئر، و من ثم يستعمل البئر دون و ازع. و لكنه رأي إنه لا يستطيع أن يحكم في هذه المسألة دون أن يلتفت الي مصلحته الشخصية. فكان أن أمر بدفن ابئر أولا. و من ثم راح يفكر براحة بال و دون وسوسة النفس في استنباط الحكم.

و في القرآن اشارات كثيرة إلي اتباع هوي النفس ، منها:

«إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَي الأَنْفُسُ».

1)سورة الانفال، 22.

2)يورد سعدي هذا المضمون في بيت شعر جميل:

به نطق آدمي بهر است از دواب دواب از تو به گر نگويي صواب

«الانسان خير من الدواب بنقطة لكن الدواب خير منك ان لم تقل صوابا».

3 و 4)سورة يونس، 100.

5)عندما يقودنا وجود المر الي امر آخر، نطلق علي ذلك اسم الدلالة . و الدلالات انواع شيء و منها الدلالة اللفظية ، و هذه تتخذ صورا ثلاثا:

الاولي:دلالة التطابق او المطابقة ، اي ان اللفظة تدل علي كل معناها، كأن نقول : سيارة و نقصد كل اجزائها .

الثانية : دلالة التضمين ، أي إن اللفظة تدل علي جزء من المعني، كأن نقول: السيارة هنا، و نفهم من ذلك ان هلكلها او محركها موجود ايضا.

الثالثة: دلالة الالتزام ، أي إن في اللفظة دلالة علي أمر خارج معناها، كأن نسمع اسم حاتم فيخطر لنا جود، و كرمه.

6) سوره البقرة ، 111.

7) سورة الانبيائ ، 22.

8) سورة الرعد ، 11.

9) سورة الحج، 45 و 46.

10) سورة الحج ، 45 و 46.

11) سورة البقرة ، 183.

12) من جملة الاخطا التي ظهرت منذ عدة قرون في دنيا العلم و كانت سببا في كثير من سوأ الفهم . هو اعتقاد بعضهم بأن وظيفة المنطق الأرسطي هي الحكم علي صحة مادة الأستدلال أو عدم صحته أيضا. و لما لك يكن هذا من وظائف المنطق الأرسطي، فقد أفتوا بعدم صالحية

هذا المنطق إطلاقاً. و إنه للما يؤسف له أن هذا الخطأ ما يزال يتكرر في زماننا هذا، و هو أمر يدل علي إن المفتين لم يعرفوا منطق أرسطو و لم يفهموه. لو عدنا إلي مثالنا السابق عن العمارة. لنا أن نقول إن مثل وظيفة منطق

أرسطو في تعيين الأستدلال، كنثل الشاقول في تعيين استقامه الجدار. إن الشيء الوحيد الذي يكشفه لنا الشاقول هو استقامة الجدار، أو اعوجاجه. إن منطق أرسطو و الذي الكتمل علي يد علماء آخرين و ازداد غني، لا يصدر حكمه إلا علي صورة الأستدلال، لا علي مادته.

13) و هذه هي القاعدة الأولي عند ديكارت. اذا يقول إنه لا يصدق شيئا إلا بعد التأكد ، فإن وجو فيه 1% من احتمال الخطأ ، نبذه و لم يأخذ به. و هذا هو معني اليقين.

14) لابد ان نسير هنا الي أنه في حالات الظن و الشكه حيث لا يمكن بلوغ اليقين، يجب أن نأخذ تلك الحالات بنظر الاعتبار. لا أن نقبل بالظن علي أنه ظن. و الاحتمال علي أنه احتمال، لا أن نأخذ الظن و الاحتمال عل يانهما يقين ، إذ إن هذا يقود إلي الخطأ.

15) سورة الانعام ، 116.

16) سورة الاسراء ، 36.

17) لقد ورد هذا الموضوع في إحدي محاضرات «بيكن». حيث علي هذا النوع من التقليد الأعمي اسم «عبادة الصنم الاجتماعي» ضمن الاصنام الأخري التي يعبدها الناس.

18) سورة البقرة ، 170.

19) إن مسألة تقليد الاسلاف، و الكبار، و البدع المعاصرة ، و الصبغة الاجتماعية ، التي نهي القرآن عنها بشدة يجب ألا تخلط بمسألة المجتهد الأعلم و الأعدل، المذكورة في الفقه ، إذ هي أمر واجب و مبني علي الاستفادة من العلم و الشخصص.

20) سورة النجم، 23.

الفصل الثالث

القلب في نظر القرآن

لعله لا حاجة بنا إلي أن نقول إن المقصود بالقلب في المصطلح الأدبي والديني ليس ذاك العضو العضلي الري يقع في الطرف الايسر من الجسم و يضخ الدم كالمضخة في العروق. ففي قول القرآن : «إِنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ».

أوما جاء في هذا التعبير الأدبي اللطيف لحافظ:

«هلع قلبي و إني أيها الدرويش غافل فماذا جري يا تري لهذه الصياد الحائر»

يتضح إن المقصود من القلب شيء سام و رفيع ، يختلف عن عضو الجسم هذا كل الاختلاف. و إن أصابه المرض أيضاً «في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهَ مَرَضَاً».

الا ان معالجة هذه الأمراض ليست من اختصاص أطباء القلب. و إذا كان ثمة طبيب يعالجها ، فذاك هو الطبيب المختص بالأمراض الروحيه.

تعريف القلب

إذن ما المقصود بالقلب؟ علينا أن نبحث عن جواب هذا السؤال في حقيقه وجود الأنسان. فعلي الرغم من إن الأنسان كائن فرد واحد. فإن له مءات الأبعاد ، يل آلافها. فال (أنا) إنسان يتألف من العديد من الأفكار و الآمال. و من الخوف و الرجاء

و الحب ، الخ ... و كل هذه الأفكار أشبه ما تكون بالأنهر و النهيرات التي تلتقي في مركز واحد. و هذا المركز نفسه بحر عميق، لم يدّع أحد من البشر بعد أنه قد سبر أعماقه و عرف كهنه.علي الرغم من أن الفلاسفية، و الروحانيين، و علماء النفس ، قد وصا كل منهم الي كشف بعض أسراره. و لكن الظاهر إن الروحانيين، كانوا أكثر توفيقاً من غيرهم . فالذي يسميه القرآن بالقلب هو في الحقيقة ذلك البحر، و إن ما نسيمه نحن بالروح إن هو إلا الأنهر، و الروافد، التي تتصل بهذا البحر.

و بما أن القرآن يتحدث عن الوحي، فإنه لا يذكر العقل، بل يقتصر علي التوجه إلي قلب الرسول . و هذا يعني إن القرآن لم يحصل للرسول عن طريق قوة العقل. و لا بالاستدلال العقلي. و انما هو قلب الرسول الذي بلغ حالة لا نستطيع نحن تصورها . فاصبح فيها قادرا علي إدراك تلك الحقائق السامية و شهودها . إن كيفية هذا الأرتبا مبينة إلي حد ما في آيات من سورتي النجم و التكوير.

. إذ يتحدث القرآن عن الوحي، و إذ يخاطب القرآن القلب، يكون بيانه أوسع من العقل ، و لكنه ليس ضده. ذلك لأن ما يعرضه القرآن أوسع في منظوره من منظور العقل و الشعور. بحيث العقل علي إدراكه و يعجز عن نيله.

مميزات القلب:

القلب في نظر القرآن أداة من أدوات المعرفة، إذ إن القرآن في معظم رسالته يخاطب القلب، تلك الرسالة التي تستطيع أذن القلب وحدها سماعها، و ما من إذن إخري قادرة علي سماعها . لذلك فالقرآن كثيرا ا يعني بالحفاظ علي هذه الأداة، و بتعهدها و تربيتها . هنا لك الكثير من الأيات في القرآن نقرأ فيها عن تزكية النفس و نور القلب، و صفائه:

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا».

«كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَي قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

«إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانَا».

«وَ الذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

و بالنظر ال أن السئيات تلقي الظلام علي روح الانسان و تكدر صفاءة، و تبعد عنه حبه للخير وسيعه اليه، فقد تكرر القول في القرآن بهذا الشأن، و قد جاء علي لسان المؤمنين:

«رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا».

أو يقول في وصف المسيئين:

«فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم»

«خَتَمَ اللهُ عَلَي قُلُوبِهِمْ وَ عَلَي سَمْعِهِمْ وَ عَلَي أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ»

«وَ جَعَلْنَا عَلَي قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ».

«كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَي قُلُوبِ الكَافِرِينَ».

«فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ».

كل هذه الأيات تؤكد ان القرآن يري الانسان في جور روحي و معنوي عال، و يري أيضا إن علي الأنسان أن يحافظ علي هذا الجو نظيفا ، نقيا . و لما كان سعي يقوم به الفرد في الحفاظ علي طهاتره ، في مجتمع غير سليم ، يعود في الاغلب عقيما غير موفق، فإن القرآن يحث الناس علي بذل الجهد لتصفية مجتمعهم ، و تزكية محيطهم. و يسير القرآن صراحة إلي أن ما تسيشره آياته من العشق، و الايمان ، و الروي، و التطلعات السامية ، و تقبل النصح ، و غير ذلك ، يتوقف كله علي تجنب المجتمع الأنساني و الأنسان نفسه الراذئل، و الدناءات ، و حب الذات الشهوات.

يؤخذ من تاريخ البشر أنه كلما ارادت القوي الحاكمة أن تبسط سيطرتها علي مجتمع ما ، لاستغلاله، سعت الي ذلك المجتمع فنشرت فيه الفساد، فتيسر لافراده مجالات اشباع الشهوات ، و تحثهم علي اتباع الملذات.

لقد ظهرت أمثولة هذا الأتجاه الشائن، الفاجع ، ذي العبرة ، في اندلس الاسلام،

الاندلس الذي كان يعتبر من منابع من منابع عصر النهضة، و كان من اكثر دول اوربا تقدماً فلكي ينتزع المسيحيون الاندلس من المسلمين ، إخذوا يفسدون روحية الشباب المسلم و أخلاقه ، فلم يألوا جهداً في توفير أسباب اللهو و اللعب، و الانغماس في الملذات للمسلمين ، و لقد نجحوا في هذا إلي درجة أن القادة، و كبار رجالات الدولة، وقعوا في حباتلهم، فلوثوا نفوسهم ، و بذلك تمكنوا من أن يتنزعوا ما كان في المسلم من عزم، و ارادة و قوة، و شجاعة، و إيمان ، و طهارة روح فأحالوهم إلي أفراد جبناء. ضعفاء شهوانيين ، يشربون الخمر ، و يرتكبون الموبقات . و مما لا ريب فيه هو أن قهر شعب هذا شأنه ليس بالأمر العسير.

لقد انتقم المسيحيون من حكومة المسلمين، ذات القرون العديدة إنتقاماً يخجل التاريخ أن يذكره ، و يشمئز من ترديد تلك الجنايات الشائنة. لقد كانوا هم أولئك المسيحيون الذين كان المسيح (ع) قد عملهم أن يديروا خدهم الأيسر لمن يصفعهم علي خدهم الأيمن. لقد اجروا في الاندلس بحاراً من دماء المسلمين، فبيضوا بذلك وجه جنگيز [المغولي]. و بالطبع كان السبب في هزيمة المسلمين ضعف همتهم، و فساد روحهم ، جزاء إهمالهم تعاليم القرآن و دستوره.

و في زماننا هذا ، حينما وضع المستعمرون قدماً في بلادنا ، كان اعتمادهم علي الحالة نفسها التي حذر منها القرآن. أي إنهم سعوا الي إفساد القلوب. و إذا فسدت القلوب، انقلب العقل الي قيد أكبر ، يغل أيدي الناس و أقدامهم . و لهذا نجد إن المستعمرين ، و المستغلين ، لا يخسون إنشاء المدارس و الجامعات ، بل يؤسسونها بأنفسهم ، و لكنهم يسعون ، في الوقت نفسه، و بكل قواهم، الي إفساد روح الطالب و قلبه. انهم يدركون حق الادراك إن القلب المريض لن يكون قادرا علي المقاومة، بل يستكين إلي كل انحطاط، و استغلال، و استثمار.

لذلك يولي القرآن أهمية كبري لطهارة روح المجتمع ، إذ يقول:«وَ تَعَاوَنُوا عَلَي البرِّ و التَّقْوَي وَ لاَ تَعَاوَنُوا عَلَي الأثمِ وَ العُدْوَانِ».

فيطلب من الناس ان يتوجهوا اولاً الي عمل الخير، و تجنب الأثم ، ثم ان يكون

توجههم هذا جماعياً ثانياً.

فيما يتعلق بالقلب، ساورد لكم بعض اقوال الرسول (ص) و الأئمة (ع) لتكون حسن الختام لهذا الموضوع . جاء في كتب السير، ان رجلا قدم علي الرسول (ص) و قال إن لديه ما يسأل عنه. فقال له الرسول : أتريد أن تسمع الجواب أم تريد ان تسأل؟ فقال اريد الجواب. فقال الرسول: لقد جئت تسأل عن البر و الخير، و عن الأثم و الشر. فقال الرجل هو ذاك. فضم الرسول ثلاثة اصابع و ضرب بها صدر الرجل بلطف و قال: استفت قبلك، ثم قال: لقد صنع قلب المرء بحيث يكون متصلا بالخير، فهو يهدأ بالخير، و يضطرب بالشر. مثل ذلك مثل الجسم ، إن دخله مالا يتجانس معه، اختل نظامه و توازن اعضائه . كذلك روح الأنسان ، يختل بالأعمال القبيحة. إن ما يسمي عندنا بعذاب الضمير، ينشأ من عدم انسجام الروح مع الآثام و الأعمال الشائنة.

«استفت قَلْبِكَ و اِن افْتاكَ المَفْتُون».

هنا يضع الرسول إصبعه علي أمر مهم ، و هو أنه اذا كان الأنسان باحثا عن الحقيقه بتجرد ، و خلوص نية، فان قليه لن يخونه أبدا، و إنما يهديه إلي الطريق الصحيح. في الحقيقة إن الأنسان مادام باحثا عن الحق و الحقيقة، و يتقدم علي طريق الحق، فإن كل ما يصادفه هو الحق و الحقيقة. إلا أن ثمة نقطة ظريفة تبعث علي سوأ الفهم، و هي أنه اذا ضل الأنسان طريقه ، فالسبب هو إنه كان منذ البداية متوجها وجهة خاصة، بعيدة عن البحث عن الحقيقة بخلوص نية.

لقد أجاب الرسول (ص) الشخص الذي سأله عن «البر» قائلا له إنك إن كنت حقاً تبحث عنه، فاعلم إنك إن وجدت ضميرك قد استرح إلي أمر ، فذاك هو البر، و لكنك إن رغبت في سيء لم يرتح له قلبك ، فاعلم إن ذلك هو الأثم.

و يسألون النبي عن معني الأيمان فيقول: إن إذا ارتكب القبيح قلق و ندم، و إذا عمل ثالحاً سر و فرح ، فهذا له نصيبه من الأيمان.

ينقل عن الامام الصادق (ع) إنه قال: إذا تحرر المرء من تعلقه بالدنيا احس بحلاوة حب الله في قلبه ، فيري الارض قد ضاقت به، و يسعي بكل وجوده للتحرر من

عالم المادة ، و الخروج منه. و هذا ما أكد أولياء الله و المنطقون إليه صحته بطريقة معيشتهم . لقد جاء في سيرة حياة الرسول (ص) إنه زار مرة بعد صلاة الصبح أصحاب الصفة، و كانوا جماعة من الفقراء ، لا يملكون من متاه الدنيا شيئاً، يعيشون بجوار مسجد النبي. فوقع نظر الرسول علي واحد منهم اسمه زيد ، أو حارث بن زيد ، و رآه واهناً نحيفاً، قد غرقت عيناه في محجريهما ، فسأله:

كيف أصبحت؟ فقال الرجل: أصبحت و حالي أهل اليقين.

فقال النبي: هذا زعم كبير. فما علامة ذلك؟

فقال الرجل: علامة يقيني هي إن النوم قد جفا ليلا ، و أنا بالنهار في صوم دائم، أقضي الليل حتي الصباح مضطرب الجوانح في العبادة.

فقال النبي: هذا لا يكفي ، زدني.

فأخذ الرجل يسرد العلامات الأخري ، فقال : يا رسول الله ، انا الآن في حالة و كأني أري أهل الجنة و أهل النار و أسمع أصواتهم ، و إن اجزتني أخبرتك بباطن أصحابك فرداً فرداً.

فرد النبي قائلا: صمتاً: صمتا! لا تزد . بل لي ما ترجو.

فقال: أرجو أن أجاهد في سبيل الله.

يقول القرآن ان صقل القلب يوصل الأنسان إلي مقام بحيث إنه إذا رفعت دونه الحجب – كما قال امير المؤمنين (ع) – لما زادته يقيناً.

إن ما يرمي اليه القرآن بتعليماته هو تربية الأنسان ، مستفيداً من سلاح العلم و العقل ، و من سلاح القلب أيضاً. و هو يستعملها بافضل أسلوب ، و أرفع طريقة ، في سبيل الحق، ذلك الأنسان الذي يجسده في أمثله حية أئمتنا و تلامذتهم الصالحون حقاً.

1) سورة ق، 37.
2) دِلم رَميده شُدُ و غافِلم مَن دَرْويش كه اين شِكاري سَرگَشْتِه را چه آمد ژيش
3) سورة بقره ، 10.
4) نقرأ في سورة النجم الآيات التالية:

«وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ».
بذكر القرآن كل هذه الأمور لكي يبين إن مستوي هذه المسائل أرفع من مستوي العقل ، فالحديث هنا عن الرؤية و اسمو.

ونقرأ في سورة التكوير :« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ التكويروَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ».
يقول اقبال اللاهوري في تعبير لطيف بهذا الخصوص: «ان الرسول هو من تفيض عنه الحقائق إذ يمتليء بهاء فيعرض مما أوتي علي الناس لكي يغير و يبدل و يرتب و ينظم»
سورة الشمس، 9.
سورة المطففين: 14.
سورة الأنفال: 29.
سورة العنكبوت : 29.
سورة آل عمران : 8.
10)سورة المطففين : 14.
11) سورة الف: 5.
12) سورة البقرة : 7.
13) سوره الأنعام : 25.
14) سورة الأعراف: 101.
15) سورة الحديد: 16.
16) سورة المائدة: 2.
17) أو ضحت في كتاب «جولة في نهج البلاغة» إن الاسلام يضع فرقاً بين أن يكون للمرء علاقة بالدنيا و أن يكون متعلقا بها.

مجموعة آثار الأستاذ الشهيد مرتضي مطهري

إن حصيلة عمر الأستاذ الشهيد، و العالم المفكر المبتكر، مرتضي مطهري، كانت كتباً و مقالات و خطباً ، بقيت بعده ذكري و فائدة، فهي جميعاً خطوات علي طريق إحياء الثقافة الاسلامية الاصلية ، و فريدة في بابها . فقد تناول الشهيد في كل منها جانباً من تلك الثقافة ، يشرح مشكلاته و غوامضه باسلوب العالم المتحقق ، و بيان بسيط، لفائدة القراء كافة.

و فيما يلي درج بأسماء آثار الشهيد المطبوعة ، اما المخطوطات فسوف تعد للطبع و النشر تباعاض.

1) اصول الفلسفة الواقعية و سيرها – ج 1.
2) اصول الفلسفة الواقعية و سيرها – ج 2.
3) اصول الفلسفة الواقعية و سيرها – ج 3.
4) اصول الفلسفة الواقعية و سيرها – ج 5.
5) خدمات الاسلام و ايران المتقابلة .
6) العدل الالهي.
7) نظام حقوق المرأة.

8) جولة في نهج البلاغة.
9) عشرون خطبة.

10)عشر خطب

11) اسباب التعلق بالمادية.

12) الجذب و الدفع عند علي (ع).

13) عون الغيبيات في حياة البشر.

14) قيام المهدي (ع) و ثورته.

15) الانسان و المصير.

16) قصص الابرار – ج 1.

17) قصص الابرار – ج 2.

18) قضة الحجاب.

19) الولاء و الولاية.

20) ختم النبوة.

21) حرق الكتب في ايران و مصر.

22) النبوة.

23) النهضات الاسلامية في المئة سنة الاخيرة.

مجموعة المقدمات عن المنظورات الاسلامية

24) الانسان و الايمان.

25) منظور التوحيد.

26) الوحي و النبوة.

27) الانسان في القرآن.

28) المجتمع و التاريخ.

29) الحياة الخالدة او حياة الآخرة.

30) الاخلاق و الجنس.

31) مقالات فلسفية.

32) العلوم الاسلامية العامة : (المنطق – الفلسفة – علم الكلام – التصوف – الاصول)

33) الجهاد.

34) تصوف الكامل.

36) المنظومة.

37) معرفة القرآن ، جزءان.

38) السيرة النبوية.

39) الامامة

UNDERSTANDING
THE QURAN

By Murahhari

Translated dy

Mohammad Salman Tawheedi